بيـــت فـى جـوبـــا

رواية

أحـمد الـمـلك

أحمد الملك

بيت فى جوبا

رواية

ortoot@gmail.com

منذ كم من القرون
جئنا من تلك القوقعة المنسية على شاطئ مهجور
وكم من القرون سوف ننتظر فى قاع العزلة
حتى نغادر وحل مشيمة الولادة
آه
يا أمي
هذا العالم يكذب علينا
آه
يا أمي
هذا العالم يكذب علينا
يا أمى..
لماذا لم تخبرينى بأن هذا العالم سوف يكذب علينا؟!

عفيف إسماعيل

إهداء: إلى صديقتى، طفلتي: شموس.

===

فى اللحظة الأخيرة، قبل موتها، رأت أشول ولدها نور الدين، رأته فى الركن البعيد من حديقة البيت، جوار شجرة المانجو فى نفس المكان الذى جرح فيه قبل سنوات حين كان يطارد النسناس الأخضر الذى أهدته له جدته. كان مربوطا فى شجرة باباى وحوله جنود يتأهبون لإطلاق النار. رأت المكان من حولها غارقا فى مغيب أبدى ترقرقت أمواجه الذهبية على صفحة مياه نهر موسمى صغير، كان يعبر المدى الغارق فى عتمة غابة استوائية، يختلط غبار ظلالها الضوئية فى صخب زمان بعيد.
أشول عرفت دون حتى أن تميز وقع خطوات غريبة من حولها، بأن الصور التى كشفت مصير ابنها الغائب كانت إشارة لاقتراب الموت منها، وأنها ترى مشهدا لم تكن رؤيته متاحة للأحياء. لم تعرف فقط مصير ولدها، لكنها رأت تفاصيل الواقعة التى ستظل حية فى ذاكرته مثل جسر من الضوء، يتسرب عبر الأزمنة لينبض فى ذاكرة العالم فى صورة نغم يتصاعد فى ساعات الضحى:
إنا لنصلى لأم الآلهة
من جمع سحرى هادئ
فى أرض كواك لياث جوك
الواقعة التى كانت سببا لقلقه وحزنه الدائم منذ أن أخذته جدته مع شقيقه قبل سنوات طويلة، لتريهما شبح اليك الجميلة الذائب فى وهج مغيب نهر أدار. أشول أخرجها صوت طلقات الرصاص فجأة من الصور التى تراجعت مثل بساط من الضوء والذكريات المنفية من ذاكرة الموت.

بعد مغيب الشمس وصل محمد عثمان عبد الدائم وأولاده على عجل، كانوا قد سمعوا أن بعض فصائل الجيش اخترقت حى الملكية وأطلقت النار عشوائيا على المدنيين، وأن أعدادا كبيرة من المواطنين سقطوا قتلى.
فى اللحظة الأولى بدا لهم السكون الخارق فى المكان نذير شؤم، وفجأة رأوا أشول دينق ماثيانق، كان جسدها مكوما بجانب سياج الحديقة فى العتمة المتكاثفة فى المكان وقد سقطت العصا التى كانت تتوكأ عليها بجانبها.
وبسبب فوضى أيام المأتم لم يتسن لأحد أن يكتشف أن نور الدين اختفى من البيت.

فى اليوم الثالث انتبه والده لغيابه، بحثوا عنه فى كل مكان فى جوبا وسألوا عنه كل أصدقائه، وكانوا كلما سألوا واحدا من أصدقائه أو معارفه انضم اليهم فى البحث حتى بدا وكأن مظاهرة كانت تنقب قلب المدينة. بحثوا عنه فى سوق الملكية، حيث النسوة الجالسات أرضا بصدورهن العارية يبعن الخضروات وأسماك البلطى والبياض وسط العفونة الناجمة عن هذا الرخاء الطبيعى، فى دوامة قيظ استوائى، حيث التنفس يصبح مستحيلا فى الهواء الراكد فى درجة الغليان، بحثوا عنه بين صفوف حائكى الملابس الجالسين إلى ماكينات الحياكة العتيقة التى تحتاج إلى قطرة زيت كل بضع دقائق لتستمر فى دورانها الذى يثير فى الجسم رعدة رملية تخترق العظام.
بحثوا عنه فى الساحات التى كان يؤدى فيها مع أصدقائه رقصة ملوال، واقتفوا آثاره بمساعدة دينق ساتى الشهير بالاسم دينق الكذاب لأنه فشل مائة مرة فى إنزال المطر رغم ادعائه بمقدرة ورثها عن جده لأمه الذى كان صانعا للمطر، أما والده فقد كان من أوائل التجار القادمين من الشمال الذين استقروا فى جوبا، وبعكس شهرة فشله كصانع وهمى للمطر إلا أنه اشتهر بمقدرة أسطورية على اقتفاء الأثر.
بحثوا عنه وحتى أقصى حدود مملكة ذبابة التسى تسى على ضفاف أنهار أزمنة منسية، وبين القوافل الهاربة من الموت إثر انتشار وباء إيبولا فى أواسط القارة، وفى القرى النائية التى قضى فيها جزءا من طفولته خلف مجاهل مستنقعات الملاريا حيث شاهد الأخوان عبد الدائم ونور الدين ذات يوم صانع المطر يؤخر غروب الشمس من أجلهما باستخدام روث الفيل، وحيث الببغاوات تؤدى المقاطع الأخيرة من أغنيات الزعيم الراحل قويك قندنق بونق، التى يتنبأ فيها بأن الحرب الأهلية سوف تندلع مرة أخرى.
وعلى ضفاف بحر الجبل حيث كان يجلس هو وسميرة ابنة عمه بعد توقف المطر يرقبان آخر قطيع أبقار يعبر المدى بين غروب الشمس وقوس قزح.
سميرة عبد الرحمن أشرفت على إجراءات المأتم، ومنعت وفق طقوس قبيلة الدينكا شراب الحليب فى البيت حتى انقضت الأيام الخمسة الأولى. ثم بدأت إعداد البيت لفترة الحداد الطويلة، لا ينم مظهرها وهى تدير بحزم كل شئون البيت عن القلق الذى يأكل دواخلها مع وقع خطوات الكارثة الوشيكة التى تشعر بها تدب من حولها. فى صوت الريح الراحلة فى صمت أمسيات الخريف، فى غناء عصافير الحب فوق أشجار المانجو. تبدل فى كل لحظة أشواقها لتضلل الحنين، الذى ينصب شباكه الوردية الناعمة من حولها، فتبدأ فى التعرف إلى العالم عبر ذاكرة لا تخصها. تتصاعد من حولها روائح زمان لم تعرفه. يبدو لها حتى غناء العصافير فى الفناء منتميا لزمان آخر، لا تميّزه أية إشارات عن الزمن الذى يعبر من حولها فى تحولات الفصول.

تدفن نفسها فى إدارة شئون البيت، تختبئ فى تفاصيل الحياة اليومية حتى لا يراها شبح الكارثة الذى يرتفع صوت خطواته كلما خفت انشغالها بالعالم من حولها. تذهب لوحدها لشراء مستلزمات البيت من الخواجة قريقورى. تجده جالسا تحت ظلال شجرة المانجو أمام متجره، وهو يمازح صبية جميلة من قبيلة الدينكا طالبا منها الزواج فتقول له: يا عجوز أنت لا تملك بقرة واحدة، فيقول لها وافقى وأنا أشترى اليوم مائة بقرة، فتقول له وهل ستشترى... أيضا؟
يضحك الخواجة قريقورى بفمه الخالى من الأسنان وهو يدخل إلى متجره ويزن الملح على ميزانه العتيق، ويشير إلى الخرز وثياب الزراق داخل محله ويقول للصبية كل الأشياء جاهزة. يضحك بفمه الخالى من الأسنان وتطفر الدموع من عينيه قبل أن تخفت ضحكاته وتذوب فى دوامة نوار الليمون. تشير سميرة للخواجة على طلباتها. وفجأة ترى نفسها جالسة مع نور الدين بالقرب من بحر الجبل وقد اكتسى الهواء من حولهما بحمرة الشفق. نظرت حولها بارتباك لترى كيف نفذت الصورة من جدار نسيانها، فرأت دينق ساتى يعبر وهو يعزف على آلة الكوندى ألحانه الملائكية التى كانت تستمع إليها فى موسم الأمطار المنصرم..
تحمل أشياءها وتعود إلى البيت، تحاول أن تصم أذنيها عن صوت الألحان البعيدة التى كانت تتدفق من حولها، شاعرة بأن سياج رائحة النوار الذى يحيط بها، كان يزيد من مقدرة تلك الألحان على اختراق جدار نسيانها. لا تلاحظ أنها كانت فى أوج رحلتها المعاكسة نحو النسيان، كانت فى الواقع تحاول اقتفاء نبض خطوات الفتى الذى اختفى منذ اللحظة التى شاهد فيها أمه مقتولة، وأنها كانت تحاول طوال الوقت أن تميز صوت خطواته من بين نفايات صخب الخريف الآفل، وومضات حنين مؤامرة العالم من حولها لقهر النسيان، وصوت غنائه بمرافقة دينق الكذاب:
إنا لنصلى لأم الالهة
من جمع سحرى هادئ
فى أرض كواك لياث جوك.
حتى النهار الذى طرقت فيه باب البيت عجوز دينكاوية، كانت تحمل سوارا جلديا، كان نور الدين يلبسه فى يده قبل اختفائه، أوضحت العجوز بكلمات متعثرة أنّ نور الدين بخير ويرسل لهم تحياته، قالت العجوز أنها لا تعرف مكان نور الدين، ولكنهم فهموا من إشاراتها بأنه انضم إلى منظمة الأنيانيا.

سرح محمد عثمان عبد الدائم بنظره فى حديقة البيت الذى بناه بنفسه قبل أكثر من عشرين عاما، تفقد أشجار المانجو والليمون والسياج الذى يطل

على الشارع الموحل السابح فى عتمة المغيب، وعبر السنوات جاءه صوت أشول تغنى وهى تعتنى بالخضروات التى تزرعها فى الحديقة، فعرف أنه فقد ابنه الثانى وإنه لن تمضى أيام طويلة قبل أن يحمل إليه مثل ما حمل شقيقه الأكبر، قال بهمس حزين : هذا البيت لم يعد لنا.
فهم أولاده وشقيقه عبد الرحمن أنه كان جادا هذه المرة وهو يعلن رغبته فى العودة ليموت فى مسقط رأسه، كانوا قد سمعوه يردد هذا الكلام عدة مرات فى الأيام الخوالى، منذ أن بدأ يشعر بحزن مسائى فى فصل الأمطار مع بدء تزايد سطوة شعور يومى بالوحدة منذ موت ابنه البكر عبد الدائم.
آنذاك شعر بأنه بدأ يفقد السيطرة على دفة حياته اليومية التى باتت تتأرجح بين رغبات محمومة فى البكاء كلما اصطدمت أنغام شاردة بحواجز نسيانه، ورغبات فى الغناء على أطلال وقائع قديمة كان صعبا عليه تحديد زمانها، دون أن يعترف أن شعوره المتنامى بالحنين إلى أماكن كثيرة تعشعش تفاصيلها فى ذاكرته كان زائفا لأنه لم ير تلك الأماكن قط..
ستظل صورة عمها فى تلك اللحظة، وهو يجلس فى مواجهة سياج الحديقة فى مقعده الأثير محاطا بهالة من العتمة الزاحفة وضوضاء عصافير المغيب، وكلماته، محفورة فى ذاكرة سميرة، حتى بعد أن انتهك الزمن حرمة ذاكرتها وتركها فى آخر أيام العمر مستسلمة لمشيئة انتظار كان يبدو لها أحيانا مثل واجهة يتحرك الموت من خلفها، مموها خطواته فى التفاصيل، فى نبض الأشياء من حولها، فى رماد الذاكرة التى كان ضوؤها يخبو تدريجيا ويختفى فى ضجيج العالم.
حتى اليوم الذى استيقظت فيه وقد نزفت ذاكرتها آخر قطرات تفاصيل مجد الانتظار، تعيد التعرف إلى الأشياء من حولها، بعينى طفل مسن متشوق لاكتشاف العالم: جدران الضوء الزائفة، نغمات الطنبور البعيدة بأشواقها التى تنتمى لأزمنة أخرى، وردات نبات اللبلاب الزرقاء، ووردات شجرة الجنهمية. تقطف الورود الحمراء وتعيد رسمها فى حجر الذاكرة، تصدر أوامرها للموتى الذين تعثر عليهم فى سراديب الذاكرة، يسيرون دون هدى مثل الأحياء، تفتش طابور الثكالى المنسيين، وصفوف أشجار التين الشوكى الشبيهة بصفوف من الجنود يمتشقون أسلحتهم، بحثا عن صورة فتاها الذى أفنت عمرها فى انتظاره، تحاول فى ومضات استعادة الذاكرة، أن تعيد رسم صورته فى ذاكرتها من نفايات الصور التى كانت تلتقطها من المارة الذين كانت تلتقى بهم وتطلب منهم أن يصفوا لها صورة العالم خارج حدود مملكة انتظارها.
تجلس لساعات مع نورا الأعرابية التى كانت تزور القرية فى أيام حصاد التمور، تجلس معها فى صالة البيت العابقة برائحة القهوة بالجنزبيل

وغناء عصافير الضحى فوق أشجار الحناء، وعطر نوار الليمون الذى يذكرها بغروب ناء كانت أمواج خيوطه الذهبية تترقرق على صفحة نهر منسى، لتطلب منها أن تبحث عن صورته فى قطع الودع دون جدوى، فلم تظهر سوى صور أشخاص متعجلين يظهرون دون تقاطيع واضحة ودون أحزان مميزة، تبذل جهدا خارقا لتحافظ على خيوط الوقائع التى تخلفها حكايات نورا الإعرابية لتستخدمها فيما بعد كجسور متحركة تعبر بها إلى فضاء هشيم الذاكرة.

تتشبث بأعمدة الضوء المتصاعدة بين البراكين وغابات الظلال، حتى لا تعصف بها أعاصير النسيان. تبحث بين صفوف صور الوجوه الباهتة التى فقدت تفاصيلها بسبب عوامل التعرية، فلا تجد سوى صدى ضئيل لصورة فتاة جميلة تحولت إلى سائل عند أول لمسة من يد رجل.

سميرة ومع بداية الخريف تفتحت من رماد أحزانها، وردة خرافية بالغة الجمال بقوام طويل مثل قوام أمها ولون أبنوسى مثلها، وعيون حزينة مثل عيون والدها، وفى البداية لم تتخيل سميرة أنها يمكن أن ترحل شمالا دون أن ترى خطيبها الغائب، ولأنها عرفت أن انتظارها قد يطول فقد حاولت تدريب قلبها منذ البداية على ابتكار دروب إضافية لتضيع بوصلته فى متاهة العواطف، وتعليمه حيلا مبتكرة لمواجهة رياح الحنين.

شغلت نفسها برعاية والدها وعمها، ورعاية شقيقها الصغير بدر الدين الذى لم يكن بالنسبة لها مجرد أخ منذ أن تولت رعايته بعد وفاة أمهما وهو لا يزال صغيرا، بدر الدين كان نحيل الجسم، ولاحظت سميرة أنه بات أكثر انطوائية مع بدء دخوله سن المراهقة رغم أنه لم يتوقف عن عادة التبول فى الفراش، التى بذلت سميرة جهدا لعلاجه منها، حتى إنها عرضته على تميت الساحر المعالج أثناء زيارتهم قبل سنوات لقرية جدتهم فعالجه ببعض الأعشاب وأمرهم بذبح خروف تقربا للإله كولانق، لاحظت سميرة إنه استجاب لعلاج الساحر، لكنه عاد مرة أخرى للتبول فى الفراش بعد وفاة والدتهما.

سميرة استيقظت ذات صباح لتسمع ضجيج غناء الصبية المتجهين مع قطعان أبقارهم إلى منطقة التوج، وسمعت صوت غناء العصافير المهاجرة مصحوبا بعزف حزين على آلة أمباية، فعرفت أن موسم الجفاف قد حل، وأن ميعاد الرحيل قد أزف. طلب منها والدها أن تقوم بإعداد حقائب السفر وتعاون معها ومع بدر الدين لجمع أثاث البيت وتخزينه حتى لا يتأثر بماء المطر. فى الأيام القليلة التى تبقت لاحظت سميرة أن مصطفى ابن عمها كان يحاول التودد إليها، وللمرة الأولى حينما وقف بجانبها متلعثما فى

ظهيرة آخر أيام الخريف، لاحظت سميرة الشبه المذهل بينه وبين نور الدين لدرجة صعوبة التمييز بينهما.
استقلوا وابور بحر الجبل إلى الخرطوم، عبر بحذر فى منطقة السدود، خوفا من هجوم محتمل لمتمردى الأنيانيا، بدر الدين تعرف فى الباخرة بسرعة على صبى فى مثل عمره اسمه الطيب كان عائدا مع أسرته إلى قريتهم فى منطقة النيل الأبيض بعد مقتل أحد أشقائه فى أحداث التمرد، لعبا سويا فى عنابر الباخرة التى مضت ببطء شديد تشق السافنا بأشجارها الكثيفة وتماسيحها النائمة على الشطآن بين سيقان نبات البردى، وأسراب طيور البجبار المهاجرة. حتى رست فى أول محطات السافنا الفقيرة حينما هبطت أسرة الطيب فى ميناء كوستى النهرى، وشاهده بدر الدين يهبط من الباخرة وسط جموع التجار المتدافعين، ورأى والده يسحبه من يده بين صفوف الباعة الجوالة والنسوة اللائى افترشن الأرض، وأمامهن أكوام النبق واللالوب والفول السودانى والصابون المحلى المصنوع من زيت اللالوب، وقبل أن يضيع فى غبار الأقدام المتدافع إلى الأبد، رفع يده الصغيرة مودعا.
توقفوا فى مدينة الخرطوم ليومين قضوهما فى بيت صديق تاجر كان يقيم معهم حينما يحضر للجنوب لشراء الأخشاب، قبل أن يستقلوا قطار الشمال إلى كريمة، وللمرة الأولى لمست سميرة سحر الليل فى هذه الصحراء المترامية. شعرت بنفسها نقطة صغيرة فى ليل مشبع بغبار النجوم وروائح غامضة تحمل عبق عوالم غير مرئية، تهب مع أنسام لطيفة تبدد جحيم النهار الطويل. تسلم سميرة نفسها لوهم أن العاطفة الاستوائية المستحيلة سوف تذبل تدريجيا كلما توغلوا شمالا فى الصحراء بعيدا عن خط استواء قلبها. سميرة كانت مستغرقة فى أحلامها، تفسر كل ومضة سراب فى الذاكرة بأنها بداية انعتاقها من نير العاطفة. لا تنتبه لعمها محمد عثمان يشرح على لوحة السماء كيف يحدد البدو الاتجاهات عن طريق استقراء النجوم، وكيف يستدلون على تغير دورة الفصول عن طريق مراقبة الثريا، تمر المشاهد أمام عينيها دون أن ترى شيئا. لم تكترث لمنظر الباعة المنهكين من القيظ فى محطات الشمس المحرقة، حيث البيض يفقس الكتاكيت أثناء عرضه للبيع ولا لباعة قماش الدمور المغزول يدويا فى شندى ولا لباعة التمر المعبأ فى سلال صغيرة من السعف فى الدامر، ولا لمنظر حلقة منشدى المديح النبوى بالطار فى المحمية ولا للأطفال المنسيين على حافة صحراء لا نهائية.
رأت عمها يشير بيديه إلى موقع معبد الأسد حيث قدس الأقداس للإلهين أبادماك وسبوى مكر فى المصورات الصفراء فى ود بانقا، وهو يشير إلى

معبد الشمس فى مروى، دون أن تسمعه وهو يتحدث بحماس فيما القطار يعبر أمام أهرامات ملوك كوش بالقرب من جبل البركل، كان يحكى قصة عمله فى شبابه لفترة قصيرة مع بعثة أمريكية كانت تنقب عن آثار مملكة مروى القديمة. بدت لها الرحلة فى عمق هذه الصحراء، حيث تخيم أشباح الآلهة المنسية، بدا لها تدرج الرحلة من عمق الغابات الاستوائية إلى هذه الصحراء القاحلة، إشارة لرحلة وشيكة نحو الموت. موت تلمح إشاراته المتكاثفة كلما توغل حزن الصحراء فى قلبها. حزن ينبت فجأة مثل شجرة تين شوكى، رغم أنها وفى اللحظة التى وطأت فيها أرض المحطة النهائية وقبل أن تجتاز عتبة البوابة النوبية الضخمة بصحون الخزف الزرقاء المثبتة فى واجهتها والتى بناها جدها باتجاه نهر النيل لتدخل الملائكة إلى البيت. شعرت بأنها لن تجرؤ على تسليم نفسها ضحية سهلة للموت، وأن صورة الفتى الذى ستفنى عمرها فى انتظاره كانت تقف مثل جدار يصد رياح الموت فى ذاكرتها.

عند اندلاع الحرب الأهلية الأولى، إثر تمرد الفرقة الاستوائية، كان الرقيب عبد الدائم محمد عثمان قد شارك مع زملائه، ولدى بدء اندحار التمرد

تقهقر مع عدد من الذين لم يستجيبوا للعفو الشامل إلى داخل حدود الكنغو، كانت أيام التمرد أياما قاسية على الأسرة. اجتمعت الأسرتان فى بيت محمد عثمان المكون من قطية واحدة آنذاك بمؤونة من الذرة والكسافا والأرز البرى لا تكاد تكفى سوى أيام قليلة، قبل سنوات حين وضعت أشول طفلها البكر عبد الدائم بعد مخاض صعب استمر أياما، نظرت بمجرد أن استعادت وعيها إلى كتلة اللحم الغارقة فى الصراخ، وقالت: سيعذبنا بموته كما عذبنا بولادته، أجفلت شقيقتها وتراجعت إلى الخلف، فقد بدت أشول وكأنها تتحدث بلسان شخص آخر تستلهم منه النبوءة الخارقة، حين رأته منذ لحظته الأولى محمولا على محفة من أعواد خشب القنا، مثقوبا جسده بالرصاص.

أشول كانت حاملا بطفلها الثالث مصطفى بعد أشهر من وفاة شقيقتها، كان عليها بذل جهد مضاعف لحماية البيت من الانفراط، تجلس طوال اليوم فى فناء البيت ترقب الأطفال لمنعهم من محاولة التسلل خارج البيت ورعاية أولاد شقيقتها سميرة وبدر الدين. زوجها محمد عثمان انشغل مع شقيقه فى بناء بيت يضم أسرتيهما فى حى الملكية، وفاة زوجة شقيقه واختفاء عبد الدائم جعلهما يقتنعان بضرورة أن يعودا للعيش سويا، محمد عثمان كان يبذل جهدا أكبر ليبدو طبيعيا، وإن غياب عبد الدائم لم يجعله يفكر للمرة الثانية خلال نصف قرن فى العودة إلى مسقط رأسه، يذكر المرة الأولى قبل سنوات حين كانت أشول حاملا بابنهما الأول عبد الدائم، تعرض وقتها لمضايقات من المفتش الإنجليزى الذى أوشك على طرده من الجنوب بحجة عدم انتظام نشاطه التجارى، لولا تدخل بعض أصهاره، بنهاية ذلك العام اضطر لمغادرة مريدى التى كان ينوى أن يبدأ فيها مشروعا لزراعة التبغ مقررا الاستقرار فى مدينة جوبا.

قبل أن يشرع فى رحلته النهائية إلى جوبا، كان عليه نقل أشول إلى بيت والدتها فى قرية على خور أدار لتضع طفلها الأول. لحقت به أشول بعد أشهر تاركة الطفل لتتم مراسم اختيار اسم له بواسطة جدته، بعد أيام من استقراره فى جوبا فى بيت صغير من الأغصان وقش السافنا، وصل فجأة شقيقه عبد الرحمن، كان قد أنفق عاما كاملا فى البحث عن شقيقه الغائب، بدءا من مدينة سواكن على ساحل البحر الأحمر والتى قصدها بناء على معلومة من أحد معارفه بأن شقيقه يعمل فى سفينة شحن إنجليزية، وإلى جبل مرة لأن بعض التجار فى أم درمان ذكروا له أنهم شاهدوا شقيقه فى قافلة تجلب التمباك من مدينة إبشى فى تشاد، وتتبع آثاره حتى طيبة الشيخ عبد الباقى إثر خبر سمعه بأن شقيقه انضم إلى إحدى الطرق الصوفية، نصحه الشيخ أن يسافر جنوبا، لم يكن ذلك أمرا سهلا، انتظر شهورا وكاد

اليأس أن يصيبه بسبب صعوبة الحصول على إذن لدخول الجنوب من الإدارة الإنجليزية.
فى النهاية عثر على شقيقه فى مدينة جوبا، أضاعا وقتا فى الأيام الأولى فى محاولة أن يقنع كل منهما الآخر بفكرته، يريد عبد الرحمن أن يعودا بينما اقترح محمد عثمان على عبد الرحمن أن يبقى معه، حاول إغراءه بأن الحياة هنا واعدة، اقتنع عبد الرحمن أن يبقى لبضعة أشهر، لم يستطع فى الأيام الأولى التأقلم بسهولة مع جو السافنا، بقى داخل البيت عدة أيام على أمل أن تتوقف الأمطار ليتجول فى المدينة، لكن الأمطار كانت تهطل باستمرار، فى النهاية اقتنع أنه يمكن استئناف الحياة أثناء هطول المطر بعكس الاعتقاد السائد فى الشمال، حيث هطول الأمطار مناسبة يتوقف بسببها العمل، حتى رجال الشرطة يرفضون العمل أثناء هطول المطر، حتى اللصوص. والتلاميذ لا يذهبون للمدارس. بعد أيام قام بمساعدة شقيقه ببناء قطية له وتزوج من أخت أشول.
استأنف محمد عثمان مع شقيقه تجارة الأخشاب التى كان قد بدأها قبل وصول شقيقه، كانا يتاجران فى أخشاب المهوقنى والقوبا بالقرب من نهر الجور والبودو من منطقتى لوكا والمورو ثم يقومان بشحنها للشمال.
عند حلول الخريف كانت زوجة عبد الرحمن حاملا وتعين ترحيلها إلى والدتها لتضع طفلها الأول. ويوم وضعت طفلها الأول وصل ألوت كما اسمته جدته لأن مولده وافق موسم الأمطار، بعد أن تعلم المشى، رافقته فى الرحلة إلى البيت بعض الفتيات من عائلة أمه، جئن يرتدين الملابس الزاهية وحملن معهن إلى أشول شراب المريسة ولحم الغزلان المجفف، كان عبد الدائم نائما حين أيقظته مظاهرة وصول ألوت، أطلق عليه والده اسم جده الأكبر عبد الدائم، وذبح خروفا للمناسبة.
عبد الدائم بدأ فى تعلم الكلام، كان يتحدث خليطا من لغة الدينكا وعربى جوبا، كانت أشول تتركه بجانبها وهى تعمل فى جنينة البيت الصغيرة تزرع الدخن والسمسم والكسافا، وتربطه بثوبها فى ظهرها حين تخرج للسوق.
بعد شهور وضعت طفلها الثانى نور الدين الذى بدا أكثر شبها بوالده، كان لونه أسمر شاحبا وجسمه فى غاية الضعف حتى إن أشول اعتقدت أنه لن يكمل عامه الأول، لكن صحته بدأت تتحسن بمرور الأيام، كانت أشول تتركه لعبد الدائم يلاعبه وتواصل عملها فى فلاحة الأرض. ومع بداية الصيف بعد أن أصبح نور الدين قادرا على المشى، أرسلتهما أشول لقضاء موسم الخريف مع جدتهما، نور الدين كان قد بدأ فى تعلم الكلام، لكنه كان أكثر انطواء من عبد الدائم الذى أغرق المكان بسرعة فى الفوضى، أطلق سراح الأرانب البرية، واستثار قردا مربوطا فى شجرة البابای فقطع فى

غمرة الهياج حبله وهرب، وتهيجت بسبب الفوضى الببغاوات فى أقفاصها، قبل أن يتسلق مثل القرد شجرة البابای، استعانت جدتهم ببعض الجيران لإنزاله من الشجرة.
أخذتهما جدتهما إلى قبة الروح مجوك ليباركهما صانع المطر، ثم أخذتهما ليشاهدا شبح إليك الجميلة التى تحولت إلى ماء عند أول لمسة من يد رجل، بجانب خور أدار، ورغم رهبة المغيب الأبدى وضجيج الحيوانات المتوحشة التى أثارت الرعب فى قلب عبد الدائم إلا أن مشهد شبح الفتاة الجميلة الذائب فى حمرة المغيب السائلة فوق النهر الذهبى، انطبع فى ذاكرته إلى الأبد، بقى نور الدين ذاهلا، منفصلا عن المشهد الرهيب، حتى إنه تجرأ ليمد يده للمس المياه، سحب يده من الماء، ومسحها فى ملابسه محاولا مسح خيوط المشهد الذهبية التى انطبعت فى يده.
اعتقدت جدته أنه لم يتحمل المشهد، لكنه ورغم صغر سنه، ألجمته الوقائع الرهيبة التى رآها فى تفاصيل وجه أليك الجميلة الذائب فى مغيب النهر الذهبى، رأى تفاصيل معركة خاسرة مع القوات الحكومية، ثم رأى نفسه مربوطا فى شجرة باباى وحوله عدد من الجنود اصطفوا فى فوضى لتنفيذ حكم الإعدام فيه. وقد انتشر دخان المعسكر من حوله حيث تناثر بعض الجنود الذين طغت أصواتهم على ضوضاء الفجر الوليد، كان البعض يقضون حاجتهم فى الأحراش القريبة حول المعسكر وبعضهم يعدون الشاى والقهوة والبعض ينظفون أسنانهم بأعواد شجر الأراك.
توقف النهر عن البوح بالمزيد، وطغى الدخان على مشهد النهر الذهبى، ثم بدأ المشهد فى التراجع، انسحبت الخيوط الذهبية برفق، وبدأت تتضح مقدمات غروب استوائى، عصافير الحب الهائمة، وصوت الحيوانات البرية، وفلول طيور مهاجرة تعبر إلى نهايات خطوط العتمة.
شعر أن المشهد كان محرما عليه دخول ذاكرته، حين اكتشف بدء انسحاب الخيوط من ذاكرته، فعرف أنه كان محرما على الموت أو النسيان.
ما ظل يذكره لفترة وجيزة قاله بعد قليل لجدته، كانت توقد النار لتعد لهما العشاء حين قال فجأة:
لم أر بقية المشهد، رأيت نفسى مربوطا فى شجرة، هل سيقتلوننى؟
أجفلت جدته وعرفت أن الصبى رأى شيئا يخصه، وعجبت كيف استطاع أن يفهم كل ذلك رغم صغر سنه، قالت له: بالعكس رآك صانع المطر يوم مولدك وقال أنك ستعيش عمرا مديدا، وسيكون لك شأن كبير، ستكون زعيما.
فى تلك اللحظة نسى نور الدين كل شىء، بدت بقية خيوط المشهد الذهبية معلقة لبرهة فى الهواء ثم تبخرت، ولم يتبق من أثر سوى بقية الخيوط

الذهبية فى يده والتى سترافقه بقية العمر، حاول هو وعبد الدائم غسلها دون جدوى بالتراب والرماد، لكن جدته طلبت منه أن يتركها وأنها ستزول بمرور الأيام.
مع بدء موسم الأمطار، بدأ فى مساعدة جدتهما فى زراعة الذرة والدخن واللوبياء، ومساعدتها فى البحث عن الأرز البرى، ويشعلان روث الأبقار لطرد البعوض، وفى ساعات القيلولة، كانا ينتهزان فرصة نوم جدتهما ليذهبا لصيد السمك من البرك ومشاركة الأولاد لعبة الأليبوك، شاهد عبد الدائم ألويل للمرة الأولى، كانت فتاة جميلة فى نفس سنه تقريبا، أوقعتهما القرعة ليلعبا مع بعضهما، اختبآ داخل أجمة كثيفة تفوح منها رائحة الكافور، شعر عبد الدائم للمرة الأولى بنشوة آخر خطوات الطفولة، وبدفء لطيف يزلزل جسده، حين وجد نفسه ملتصقا بجسم الفتاة، يتحسس للمرة الأولى جسد امرأة. لم تستمر نشوته طويلا، فقد عثر عليهم البقية بسرعة، حين خرجا، لاحظ عبد الدائم أن نور الدين كان ينظر إليه نظرة غريبة، كأنه يتهمه بشىء ما، حتى إن عبد الدائم لم يرفع عينيه ليلاقى نظراته حتى عودتهما إلى البيت، لم يسأله نور الدين عما حدث، لكن حاجزا ما نشأ منذ تلك اللحظة بينهما، لم يجدا له تفسيرا، حاجز من الخوف لم يستطيعا أبدا تجاوزه، عبد الدائم لم يمنعه شعور خفى بالذنب من البحث عن ألويل، لم يتمكن من العثور عليها لعدة أيام، شعرت حتى جدته بقلقه، وكآبته فاعتقدت أن الحنين يداهمه لبيتهم وأمه، فقررت إعادتهما إلى البيت، قاوم هو قرار العودة، حتى نجح فى تأجيله عدة مرات، شعر أن نور الدين كان يعرف السر، صمت نور الدين كان يزيد من نار عذابه، شعر بعضوه الذكرى ينتصب للمرة الأولى حين استيقظ فجأة من النوم ذات ليلة قائظة، عرف من تنفس شقيقه المنتظم أنه ينام بعمق، فسحب أقدامه بهدوء وغادر البيت، فى ضوء القمر جرب الاستمناء للمرة الأولى، تخيل ألويل عارية تماما، قطعة من الأبنوس الدافئ، تخيل نفسه يغوص فى عريها الدافئ، واستسلم لعذاب متقطع، وشعور بالفشل، قبل أن يتدفق السائل الساخن ويتدفق معه جزء من قلق عذابه.
لدى عودته وجد نور الدين مستيقظا فى انتظاره، لم يسأله أين ذهب، قال عبد الدائم متلعثما:
ذهبت لأتبول. ثم أخلد فورا للنوم.
عرف من بعض الأولاد فى اليوم التالى أن ألويل ذهبت لزيارة جدتها فى قرية بعيدة، فرضخ على الفور للعودة إلى البيت، لدى عودتهما وجدا أن أشول وضعت طفلا ثالثا، كان يبدو أكثر شبها بنور الدين رغم سواد بشرته الفاحم. عبد الدائم أصبح بعد عودته أكثر ميلا للعزلة وأقل شغبا داخل

البيت، لاحظت أشول تغير أحواله وشجعته للخروج من البيت ليلعب مع أقرانه فى المدرسة، وكانت تصطحبه معها إلى السوق ليحمل معها مشتروات البيت، واكتشفت أن أكثر ما لفت نظره كان ببغاء يتحدث بضع كلمات بلهجة الزاندى يعرضها رجل مسن فى قفص من أعواد الشجر ملون بألوان زاهية، اشترت له الببغاء على أمل أن يساعده ذلك فى تحقيق سلام مع العالم من حوله، انشغل به فى الأيام التالية مهملا كل علاقاته داخل البيت، كان يشعر أن نور الدين يراقبه من طرف خفى، بعد أشهر بدا فجأة وكأنه يخرج من قوقعة عزلته ويستأنف حياته، بمجرد أن أعلنت أشول أنهما سيذهبان لقضاء الخريف مع جدتهم.

عرف لدى عودته أن ألويل لم تكن موجودة وأنها لا تزال مع جدتها فى قرية دوك فايويل. لم يتمكن من رؤيتها إلا بعد أيام حين كان يعبر الشارع مع أقرانه من الأولاد فى لباس الحرب أثناء حفل التدشين أمام رئيس الحربة، شاهدها لحظة تفجر الدم من وجهه بعد فصد جبهته بستة خطوط أفقية، وهى تصفق وسط زمرة من الفتيات، فى مساء يوم إعلانه رجلا، تسلل فى عتمة المغيب إلى بيت ألويل، اقتحم البيت بوجهه النازف، كان والد ألويل قد فرغ للتو من تناول عشائه، حين ظهر أمامه الفتى النازف، أفرغ عبد الدائم ودون مقدمات أمامه شحنة قلبه: أريد أن أتزوج من ألويل!

حدّق الأب فيه مندهشا من منظره، ومن عجلة الصبى الذى لم تجف بعد دماء إعلانه رجلا، ولم يزد عن جملة واحدة: ما اسمك يا فتى؟

كأن عبد الدائم كان ينتظر هذا السؤال، قال بثقة: اسمى ألوت.

قال والد ألويل: هل لديك عمل.

قال عبد الدائم: سأدخل الجيش.

ابتسم والد ألويل وقال: بعد أن تدخل إلى الجيش أحضر والدك وسأزوجك ألويل.

بعد أشهر من إكماله للمدرسة الأولية حزم عبد الدائم حقائبه، حان أوان تحقيق حلمه القديم، رافقته أشول حتى نهاية الشارع وهى تسحب مصطفى خلفها، شعرت وهى تلوح له وهو يختفى فى حمرة المغيب أنها فقدته للأبد، بعكس والده كانت تشعر بالقلق والخوف عليه، رغم أن الانضمام للجيش لم يكن مخيفا آنذاك ولم تكن تلوح فى الأفق نذر الحرب الأهلية الوشيكة.

أشول كانت ترغب فى إرساله إلى منطقة التوج فى موسم الجفاف، بدا لها أن عثوره على شريكة حياة كان مهما ليحقق سلاما مع العالم من حوله، لم تكن تعرف برغبته فى الزواج من ألويل، نور الدين بعد سفر عبد الدائم ورغم أن العلاقة بينهما فى الفترة الأخيرة لم تعد قوية كما كانت فى السابق

إلا أنه شعر بفراغ شديد وشعر بالشوق له وللأيام التى طاردا فيها سويا أسراب العصافير ولعبا مع الصبية لعبة الأليبوك.
لاحظت أشول تردده وخجله الشديد حتى إنه كان يختفى من البيت حين يزورهم شخص ما، أو يبقى صامتا طوال وجود شخص غريب، اعتقدت أن السبب كان قرب ميعاد أن يصبح رجلا، دون أن تنتبه إلى أنه كان يقاوم فى عقله الباطن فشله فى استيعاب صورة أليك الجميلة فى ذاكرته والتى بدأت خيوطها فى التسرب منذ لحظة اكتمال خطوطها للمرة الأولى فى ذاكرته.
سببت له محاولات استعادة الصورة قلقا شديدا وشعورا بالخوف، لأن الخيوط القليلة التى تبقت من الواقعة لم يكن فيها سوى مشهد عابر للحظة إعدامه، فيما بقيت الآثار الذهبية فى يده دون أن يعى تحديدا أسباب نشوئها.
أصبحت أشول تصطحبه معها إلى السوق، كان يسير خلفها ساهما دون أن يكترث لصخب العالم من حوله، ولا لعصافير الحب التى تغرد داخل قفص صغير من الخشب ولا لمنظر النسوة العاريات الصدور اللائى يجلسن خلف أكوام الخضروات الطازجة، الباذنجان والبامية، ولا لباعة سمك البلطى، وباعة الدمى المصنوعة من العاج وخشب الأبنوس التى تصور محاربين بحرابهم الطويلة، لاحظت أشول أنه أبدى بعض الاهتمام وتوقف قليلا أمام الرجل الذى يعرض للبيع قردا صغيرا يضع فوق رأسه قبعة من القش.
بعد شهور عاد عبد الدائم إلى البيت، أشول كانت أول من شاهده قادما وهى تعمل فى الحديقة، فى البداية لم تتعرف عليه بسبب ملابسه العسكرية وجسمه الذى ازداد طولا وسوادا ونحولا وفى أثناء الغداء أعلن موجها الحديث لوالده بأنه حصل على إجازة لمدة أسبوعين ليتزوج، سأله والده وهل وجدت عروسا؟
رد بثقة محارب: نعم، ألويل.

بعد انتهاء تمرد الفرقة الاستوائية وصدور قانون العفو الشامل عن كل المتمردين، بقيت الأسرة أياما طويلة فى انتظار عبد الدائم، قام والده بالاتصال بعدد من العائدين من جنود الحامية الاستوائية وبعض حرّاس السجون لمحاولة معرفة مصيره، سمعت الأسرة عدة روايات حول مكان وجوده، سمعوا أنه شوهد فى الحدود مع الكونغو مشاركا ثوار السمبا الرقص فى الأحراش، أو أنه انضم إلى منظمة تبشيرية مركزها فى جبل دوليب وأنه أوفد إلى أوربا من قبل جمعية أبناء فيرونا لترجمة إنجيل لوقا إلى لغة الدينكا، ثم نقلت لهم رواية أخرى بأنه شوهد فى ليوبولدفيل برفقة المناضل وليم دينق. لم تثر تلك الروايات سوى مزيد من الارتباك واليأس حول مصيره. وأشارت بعض الروايات إلى وجوده فى عدة جهات فى الوقت نفسه تقريبا، ففى حين أنه شوهد يشرب خمر المونـاتسى فى حانة صغيرة من خشب البامبو فى دار السلام، أشارت رواية أخرى إلى وجوده فى نفس الوقت فى فندق بحيرة مانيارا فى كينيا مشاركا لبعض السواح الأجانب الرقص على إيقاع موسيقى الجلوا الإفريقية، إضافة لرواية بعض تجار الأخشاب الذين شاهدوه يهيم عاريا مع رعاة من قبيلة الماساى، فيما شوهد أيضا مع ثوار السمبا مرتديا قلادة خاصة بالزعيم باتريس لومبا وهو يتحدث بخليط من السواحيلى والكنقالا.

لم تفقد أشول الأمل فى رؤيته، أبقت البيت فى حال استعداد دائم لوصوله فى أية لحظة، غسلت ملابسه العسكرية ونظفت حذاءه الضخم من الطين

الجاف وأعدت خروفا لذبحه شكرا للروح مجوك. وأرسلت فى طلب ألويل زوجته وأبنائه الاثنين. لكن ألويل ردت بأنها ستحضر إلى البيت فى نهاية الخريف.
مع مطلع موسم الجفاف وصلت ألويل تصطحب معها ولديها، الأكبر أسموه ألوت على اسم والده والأصغر أسموه أديو لأن ميلاده وافق وفاة جدته، أطلق جدهما عليهما ساتى وسمل. انخرطت أشول فى البكاء لدى رؤية الطفلين لكنها تمالكت نفسها ومسحت دموعها ورحبت بالقادمين الذين خفف ظهورهم فى البيت من مظاهر الكآبة والحداد غير المعلن.
حقق الطفلان تآلفا سريعا مع سميرة، بعكس رد فعلهما مع جديهما وعميهما. كانا ينامان معها فى فراشها وأصبحت تأخذهما معها للتنزه فى ساعات العصارى بجانب بحر الجبل. لاحظت أن الطفلين داهمتهما موجة من الفزع حين شاهدا للمرة الأولى منظر غروب الشمس فوق النهر. اعتقدت سميرة أن فزعهما كان بسبب أصوات الحيوانات المتوحشة، لم تلاحظ أن الطفلين ورثا عن والدهما مشهد شبح أليك الجميلة الذائب فى حمرة مغيب شمس خور أدار، لأن المشهد كان محرما على الموت والنسيان، وأن فزع الطفلين كان بسبب رؤية المشهد المطابق للمشهد المحفوظ فى ذاكرتيهما.
يوم وصلت جثة والديهما، كان الطفلان خارج البيت، أشول كانت تشعر بقلق غامض منذ استيقاظها، حاولت أن تشغل نفسها بالعمل فى مزرعتها الصغيرة قبل أن تشم فجأة رائحته تهب قوية من حولها، واكتشفت أن الرائحة كانت تفوح فى كل مكان فى البيت فعرفت أنه قريب منها وأنه كان قادما من أجلها مثلما ظلت تراه أثناء نومها طوال عدة ليال وهو يخترق باب البيت بطوله الفارع وملابسه العسكرية الملطخة بالوحل. لكنها لم تجد تفسيرا لشعورها أثناء الحلم بأنه كان يعود بنفس سمات عودته الأولى بعد مولده فى بيت جدته. لا يعى شيئا من حوله، بذاكرة جديدة تنفتح بنهم على العالم. بعد سنوات ستعرف من بعض زملائه أنه جازف بالعودة خصيصا من أجل رؤيتها، رغم أنهم حاولوا منعه من مغادرة المخبأ، فقد ظل طوال ليال يستيقظ على مشهد أمه وهى تمد له يدها لتنتشله من قاع بئر دون قرار. عرفت أنه كاد ينجح فى الوصول إلى البيت لولا أن شاهده فى اللحظة الأخيرة بعض جنود الجيش المخمورين، كانوا يطلقون النار عشوائيا بدافع التسلية، وأطلقوا عليه النار معتقدين أنه لص. سمعت أشول جلبة الموت فوقفت بجانب باب البيت دون أن تقوى على الحراك حتى عبرت الجثة بجانبها، تترقرق من العينين صور المشهد الرهيب للفتاة التى تحولت إلى سائل عند أول لمسة من يد رجل.

بعد اختفاء نور الدين ورحيل الأسرة شمالا ومعها أبناء عبد الدائم ساتى وسمل، بعد أن اعتذرت ألويل عن السفر لاضطرارها للبقاء لرعاية والدها المسن على أن تلحق بهم فى وقت لاحق، بذل محمد عثمان جهدا صعبا لإقناعها لتتركهما يصطحبان الولدين معهم بسبب تدهور الأحوال الأمنية فى الإقليم، وافقت ألويل بعد لأى شديد على أن تحتفظ بالبنت التى أسموها أشول معها.

بعد الاستقرار فى البيت انقطعت أخبار الجنوب عنهم، كانت أخبار مصطفى ترد إليهم متقطعة، سمعوا أنه تم استيعابه فى الجيش ثم سمعوا أنه انضم إلى حركة الأنيانيا ثم انضم لاحقا لثوار السمبا أنصار الزعيم باتريس لومومبا، وسمعوا أنه تزوج من فتاة من قبيلة الشلك وأنجب ثلاثة أطفال قتل أحدهم فى الحرب الأهلية.

سميرة أسلمت نفسها لتفاصيل الحياة الجديدة دون أن تهمل الاستعداد لعودة نور الدين التى بدت لها حتمية. يختفى من أحلامها ليظهر أحيانا فى قطع الودع التى تحتفظ بها سعيدة بت نور الله فى المطبخ لتقرأ بها نبض الدنيا من حولها فى ساعات القيلولة. كانت سعيدة امرأة وحيدة تعيش فى بيت صغير فى أطراف القرية، تحاصره كثبان الرمال، وكانت تمت بصلة قرابة بعيدة لهم، وحين سمعت بعودتهم جاءت لزيارتهم فطلب منها محمد عثمان أن تعيش معهم بدلا من العيش وحدها فى بيتها. امتثلت للطلب وقامت بجمع بعض أشيائها القليلة وتركت بيتها نهبا للرياح، تأقلمت بسرعة مع حياتها الجديدة رغم أنها كانت تشعر بالحنين لأمسيات ضوء القمر فى فناء بيتها الذى كانت تكافح يوميا حتى لا تغرقه الرمال الزاحفة. ولقيلولتها تحت شجرة النيم وخروجها لرعى بهائمها فى ساعات العصارى، وزيارة قبر زوجها المدفون فى مقابر قريبة من البيت تتغير معالمها كل يوم بسبب الزحف الصحراوى، تضع جريد النخيل والحصى فوقه حتى لا تضيع معالم القبر. حين قام زوجها ببناء البيت الذى عاشا فيه سنوات طويلة. كان يرى لفترة طويلة أثناء النوم أنه يعثر على كنز مخبأ فى فنائه. بعد انتهاء خدمته فى الجيش قضى عدة سنوات فى حفر أرض الفناء دون جدوى، كان يحفر طوال الليل حتى لا يشعر به شخص ما ويقوم بإبلاغ السلطات. وفى النهاية بعد أن قام بحفر البيت كله وتقويض أساسات الغرف والجدار الخارجى قضى عدة أشهر أخرى فى إعادة ترميم ما قام بتدميره أثناء البحث. وكأن نهاية البحث كانت هى الإشارة التى ينتظرها الموت، فقد أمهله فقط ليعيد ترميم الجدران التى حفر تحتها.

سعيدة كانت تساعد سميرة فى جمع الحشائش لإطعام الماعز والضأن. كانتا تجلسان فى المطبخ الكبير حيث فرن الفخار الضخم الذى تصنع عليه

سميرة الخبز. تتبعت سعيدة بت نور الله خطوات نور الدين على قطع الودع، فرأته هائما على وجهه فى عاصفة غروب تترامى حدوده حتى مشارف ممالك منسية فى عمق السافنا، ورأته فى صور أقل وضوحا بسبب ضباب الغروب الذى يتخلل الصور مربوطا فى شجرة استوائية وعدد من الجنود ينتشرون حوله.

ستساعدها سعيدة بنفس الهمة لكشف مصيره فى الاستعداد لعودته. تخيطان ملابس زفافها سويا، لا تلاحظ سميرة أنها كانت بمضى الزمان تعيد ترميم الذكريات التالفة من خلال حياكة الصوف. صنعت غطاء للمائدة من القطن، أمضت فى حياكته شهور الصيف الطويلة، العالم كله يعبر كموسيقى خلفية أثناء انهامكها الشديد فى عملها: صوت الريح فى الأفنية وصوت غناء القمرى، تبدو لها ثمة علاقة لا تفهمها بين غناء القمرى والغطاء الذى تعمل عليه. الشىء الوحيد الذى لا تهمله وكأنه جزء من عملها فى حياكة الغطاء، كان رعاية أبناء عبد الدائم ساتى وسمل، لم تلق بالا للرسم الذى سيظهر فى الغطاء، فقط تستخدم عدة ألوان من الصوف وتمضى فى حياكة الغطاء، تترك إيقاع الحياة البطىء من حولها، يسحب الخيوط الخفية لشكل العالم الملون القادم من رحم التفاصيل الصغيرة المنسية.

وجاء موسم الدميرة، يأتى إلى البيت عدد من الغرباء تقوم هى وسعيدة بإعداد الطعام ونظافة البيت وغسيل ملابس والدها وعمها اللذين استعادا بعض مبادرة حياتهما القديمة واستأنفا علاقات متقطعة مع الجوار. بينما الصغيران ساتى وسمل يكبران على وقع زمن آخر لا يميزان تفاصيله، لا يلحظان وجوده إلا بقدر ما تتباعد خطى الزمن الآخر الذى يرتبطان نحوه برؤيا حلم غامض يعشعش فى ذاكرتهما. ذات يوم يجلسون جميعا فى فناء البيت على حصير من سعف شجر الدوم فى ضوء القمر الذى يغرق صخب موسم الدميرة من حولهما، فيما تحكى سعيدة قصة فاطمة السمحة والغول.

فجأة حين بدأت سعيدة تحكى تفاصيل وجه فاطمة السمحة، هب ساتى واقفا فجأة، أمسكت سميرة بيده وجذبته ليجلس بجانبها، كان العرق يتصبب غزيرا من وجهه، نقلته حكاية فاطمة السمحة إلى عوالم أخرى، حرّكت إعصارا من الوقائع المدفونة فى النسيان إلى مركز ذاكرته، قال بهمس: هذه الفتاة تذكرنى بصورة فتاة رأيتها، لا أعرف متى رأيتها، ولا أعرف كيف أصفها، فقط أستطيع أن أشعر بوجودها فى بعض الأحيان أو كلما استمعت إلى من يصف وجها شبيها بوجهها.

لا يلاحظ ساتى أن الواقعة التى كانت تؤرقه لم تكن سوى صور مشهد ورثها من ذاكرة والده، مشهد الفتاة الجميلة الذائب فوق حمى غروب النهر المنسى، أليك الجميلة التى تحولت إلى سائل عند أول لمسة من يد رجل.
خطوات الزمن تمضى ببطء فى نهارات الدميرة، حيث الحرارة العالية تنفذ حتى إلى العظام حتى إن سعيدة بت نور الله تمنع ساتى وسمل وبدر الدين من الخروج من البيت للعب فى الشارع مع الصبية، لأن العظام تكون لينة كما تقول سعيدة فى ذلك الموسم وتنكسر بسهولة. تواصل سميرة عملها فى حياكة غطاء المائدة فى ظلال شجرة النيم العتيقة التى تملأ نصف الفناء فيما تعمل سعيدة بجانبها فى حياكة الطواقى والمناديل ويلعب ساتى وسمل وبدر لعبة السيجة. تعدان الطعام للغرباء الذين يتوقفون فى البيت فى ساعات القيلولة، ويبقى بعضهم لعدة أيام فى المضيفة التى تطل من ركن المزرعة البعيد على الشارع، والتى قام محمد عثمان بصيانتها، كانت فى السابق مسيدا شيده والده الراحل، تعرض للإهمال بسبب عدم استخدامه عدة سنوات بعد رحيله هو وشقيقه خارج القرية. كان محمد عثمان يود أن يستعيد المكان مجده السابق حين كان يعج بالضيوف والغرباء الذين اشتهر والده باستضافته، وكان يقيم فيه أيضا بعض الطلاب الذين وفدوا من أماكن بعيدة للدراسة فى خلوة لتحفيظ القرآن تتبع لأحد مشايخ الطرق الصوفية فى قرية مجاورة. بعد أن قام محمد عثمان بصيانة المضيفة وفتحها للضيوف كان أول من وصل من رواد المكان القدامى، ود السكة الذى كان يظهر دائما فى موسم الدميرة ويختفى طوال فترة الشتاء، وكان دائما يعود بحكايات كثيرة حول أسفاره ومغامراته رغم أن الجميع كانوا يعلمون أنه لم يكن يغادر بيته فى قرية مجاورة غارقة فى الرمال، فى فترة الشتاء، وكان بعض كبار السن يقولون أن مستوى جنونه يرتفع عند فيضان النهر، فيغرق قلق جنونه فى تجوال يعبر خلاله القرى بحذاء نهر النيل ليصل أحيانا إلى مدينة وادى حلفا فى أقصى الشمال. وما إن تبدأ الرياح الباردة فى الهبوب حتى يعتزل العالم فى بيته ولا يخرج من البيت إلا فى أحيان نادرة وتتولى زوجته إحضار كل مستلزماتهم حتى ليف أشجار النخيل التى كان يستخدمها فى صناعة الحبال.
سميرة وسعيدة كانتا تذهبان إلى السوق أيام الأربعاء لشراء مستلزمات البيت، تصطحبان بدر وسمل معهما أحيانا ليساعدا فى نقل الأشياء.
منذ أن سمعت ساتى فى ذلك المساء يحكى قصة الفتاة التى يشعر بوجودها دون أن يتمكن من وصف صورتها. بدأت سميرة تنتبه لعملها، تشعر كما لو أن صورة الفتاة التى يحاول ساتى الإمساك بها فى فوضى الذاكرة، كانت تتحرر تدريجيا فى غطاء المائدة.

فى نهاية موسم الدميرة جاءت لتعيش معهم فى البيت فاطمة ابنة عمهم النور الذى كان الوحيد الذى بقى فى البيت بعد رحيل عبد الرحمن ومحمد عثمان جنوبا، كانت قد تزوجت قبل سنوات من قريب لهم يعيش فى إحدى الجزر البعيدة فى نهر النيل، كان الرجل يسيء معاملتها لكنها صبرت طوال سنوات بسبب خوفها من العيش وحيدة فى البيت الذى كان مهجورا، وبسبب خوفها من أن يحرمها زوجها من ابنتها الصغيرة. كان صبرها قد نفد حين تزوج زوجها من امرأة اخرى، قالت إنها سمعت شخصا قبل أشهر فى يوم السوق ينقل نعى عمها عبد الرحمن لكن زوجها منعها من السفر وحذرها أنها لن يكون بإمكانها العودة إلى البيت إن غادرته دون إذنه. عرفت بعد وصولها إلى البيت أنه بعد وفاة عمها عبد الرحمن بشهور قليلة قرر عمها محمد عثمان العودة إلى الجنوب، فى البداية حاولت سميرة أن تقنعه بعدم السفر وبأنهم سيعيشون لوحدهم فى البيت، أقنعها أن مصطفى سيعود قريبا وأنه أيضا لن يتأخر، وأنها زيارة قصيرة بسبب شعوره بالحزن بعد وفاة شقيقه. لم تمض سوى أسابيع منذ سفره حين سمعوا بخبر وفاته.

فى الشتاء ومع بدء هبوب ريح الشمال بدأ ظهور الغرباء فى البيت يصبح نادرا. واصلت سميرة عملها داخل البيت كانوا يجلسون نهارا فى الفناء يلتمسون دفء الشمس ومع غناء طائر الهدهد الحزين الذى يتنبأ بالعاصفة مضت صورة الغطاء تتكون تدريجيا دون أية إشارة توضح شكل الصورة النهائية. ذات مساء على ضوء مصباح الزيت فرغ العمل، علقت سميرة الغطاء على الحبل الذى يضعون عليه الغسيل ليجف، وأخلدت للنوم هى وفاطمة وسعيدة، فى الصباح استيقظ العالم كله على مشهد الغروب. نفس الغروب المحفوظ فى ذاكرة الأخوين ساتى وسمل. نفس شبح الفتاة الجميلة التى تحولت إلى سائل عند أول لمسة من يد رجل، شبح أليك الجميلة.

بعد شهور من توقيع اتفاقية أديس أبابا، وصل مصطفى، سميرة كانت تعيش منذ أيام على حلم عودة نور الدين بعد أن رأته سعيدة بت نور الله وهو يشق طريقه عبر الأزمنة، يرتفع صوت ضوضاء خطواته أحيانا حتى يكاد يجاوز جدار الحلم، ترتفع دقات قلبها وهى تتوقع انفجارا سيولد نور الدين أمامها من رحم غباره. ثم يخفت صوت خطواته فى أحيان أخرى فى

ضوضاء الرياح التى تكتسح أودية الرمال التى يقطعها.. حين بدأ صوت الخطوات الضخمة يمزق صمت الضحى العابق برائحة نوار الليمون وغناء القمرى. كان ساتى وسمل وبدر قد ذهبوا إلى المدرسة، وسعيدة بت نور الله خرجت لتجمع جريد النخيل لتعد طعام الفطور.
وجد سميرة فى نفس المكان الذى تخيل أنها ستكون جالسة فيه، ونفس الصورة التى تخيلها فيها: نخلة باسقة، تطرح ثمارها حتى وهى منخورة من الداخل بالأرضة. تغرق النهار فى ضجيج انتظارها. تغزل خيوط الانتظار لتتكوم عبر السنوات أطقم أغطية المناضد والطواقى والمناديل. تعيد إنتاج أحلامها وذكرياتها فتظهر الصور المنسية فى متاهة السنوات فى أغطية مناضدها، والصور التى تستعيرها من ذاكرة الناس من حولها، فظهرت صور وقائع وحكايات كثيرة كانت جزءا من تفاصيل الحياة من حولها. مثل صور الرحلة الوحيدة لسعيدة بت نور الله قبل سنوات حين سافرت بالقطار إلى كوستى بواسطة تذكرة مجانية كسبها أحد أقربائها فى مسابقة أفضل أغنية للهواة. ظهرت حتى تفاصيل شجارها مع الرجل الذى أوصلها بجمله من محطة القطار إلى القرية حيث لم تكن توجد سيارات أجرة. تشاجر معها حين قدمت له حين طلب أجرة توصيلها، التذكرة المجانية التى بليت بفضل العرق والرحلة الطويلة التى حققت فيها آخر أحلامها: زيارة قبر شقيق عمل لفترة بحارا فى البواخر النيلية وتوفى ودفن فى كوستى. تظهر حتى نتف من الأحلام الخليعة للغرباء الذين تزداد أعدادهم فى موسم الدميرة، وقوافل المهربين العابرة فى ضوء القمر، وتجار الحمير وباعة الأوانى المنزلية من الغجر. تظهر حتى تفاصيل أحلام بعض الموتى الذين يهيمون فى القرية فى قيظ أيام الدميرة، يتلصصون على الغرباء النائمين فوق كثبان الرمال.
أعطاها المشهد من حولها: غابة التين الشوكى فى مدخل الصالة، ونبات العلق الذى يغطى نصف الجدار، والفناء الغارق فى وردات نبات صباح الخير، والمنديل الأحمر الذى تربط به شعرها. أعطاها مظهرا شبيها بالربة إيزيس. استقبلته بالحفاوة الخاصة باستقبال مهزوم، عرفت من نبض خطواته المثقلة بالحنين وبقايا الحزن المنهك فى عينيه من حمى السهر والتجوال أنه شارك فى جحيم حرب أهلية خاسرة أعطته شهرة قاطع للطريق ولص مواش أكثر مما أسبغت عليه من أمجاد محارب ليسلو حبها المستحيل. عرفت من نبض الخطوات المرتبكة التى مزقت صمت دبيب الحياة من حولها، أصوات الطيور المهاجرة تعبر فوق حقول الذرة، وصوت عصفور أبو البشير فوق الجدار ورائحة القهوة الطازجة تتماوج فى الأفنية. عرفت أنه كان يحاول إنجاز التباس أخير مستغلا إنهاك ذاكرتها

بالتفاصيل المكررة ووطأة الانتظار. لمزج صورته بصورة شقيقه المفقود، حتى إن سميرة ارتعدت فى البداية حين واجهت وجهه المعدنى الناحل بسبب قسوة عشر سنوات من حرب الأحراش، حين اكتشفت أنه نجح فى تقمص كامل لصورة شقيقه. نفس السحر الغامض فى العيون، والابتسامة الباهتة، بل حتى نفس تفاصيل إيقاع الزمان المصاحب، فاشتمت رائحة السافنا وعبير زمان أثار فى ذاكرتها إعصارا من الحنين، فرأت الصبية يعبرون بقطعانهم فى موسم التوج، وتصاعد صوت عزف دينق ساتى على آلة الكوندى.

فجأة تعالت نغمات على الطنبور مزقت هالة الحنين من حولها، وجدت نفسها تعود تدريجيا إلى الوعى بالعالم من حولها، ومن خلال حبات الضوء عادت الأشياء تأخذ مكانها، فتلمست آخر أنفاس موسم الدميرة تتبخر فى سماء زرقاء ظللتها أسراب الرهو المهاجرة، واشتمت رائحة القهوة تعدها سعيدة بت نور الله وهى تثرثر فى الفناء مع غجرية عرضت أرضا بضاعتها من أوانى الألمونيوم والبلاستيك. ترقرقت أنغام الطمبور الذى كان ساتى يعزفه فى الفناء وصوت غناء فاطمة ابنة عمها الجميل، تحاول مجاراة أنغام ساتى بترديد الأغانى التى تحفظها عن ظهر قلب من الغرباء العابرين، الذين يتركون عبق ألحانهم الراكد بين ظلال أشجار النيم، واستقرت فوق هيئة المحارب الجاثم يسد منافذ الضوء المتسرب عبر أوراق نبات العلق، فرأته فى صورته الحقيقية: مجرد محارب خاسر حتى لو حارب من مواقع كل الخصوم، من عينيه ينبض نفس بريق الحزن الذى سيلازمه حتى لحظة إطلاق الرصاص عليه فى منطقة نائية بالقرب من الحدود الأثيوبية بعد استسلامه وعدد من الجنود الذين شاركوا معه فى محاولة تمرد فاشل ضد الحكومة العسكرية بدأ بمحاولة للاستيلاء على مطار مدينة جوبا. بدا مبتسما وواثقا من نجاح حيلته، شعرت سميرة بالخوف، عرفت أنه كان فى الواقع يحاول دفعها لتسلم بموت شقيقه، إنه يستحيل أن يكون حيا فى الوقت الذى يمكن أن يوجد فيه شخص ما يتصرف ولو للحظات قليلة مثله تماما.

تعرف أن قدرها أن تظل فى انتظاره حتى بعد أغلقت كل فنادق المنفيين خارج الوطن، وكل معسكرات اللاجئين، حتى بعد إعلان أسماء كل الموتى، لأنه كان مجهولا أيضا بين الموتى. تنتبه إلى أن حيلة مصطفى نبهتها إلى أن الأحلام المزعجة التى ظلت تراها فى الفترة الأخيرة كانت مرآة لشعور متنام باليأس من الانتظار يتبدى أثناء النهار فى صورة خوف مبهم يفسر كل إشارات الحياة من حولها كإشارات للموت، يبدو لها كل تغيير من حولها، كإشارة لا تحتمل التأويل لموت وشيك، حين تستمع لصوت فاطمة

الجميل وهى تغنى بينما تصنع خبز القراصة، يثير فيها صوت الغناء مشاعر مختلفة، وتلحظ فورا وقعه المختلف عن غناء العام الماضى، حين يبدو لها غناء القمرى مختلفا، رائحة النوار، ضجيج العالم مع تغير المواسم. دون أن تنتبه إلى أن التغيير كان بفعل الزمن وليس الموت. تلاحظ أن ذلك الخوف كان معادلا فى الواقع لنظرات الآخرين لها ولإشارات سعيدة بت نور الله النادرة بأن البيت أصبح معروفا للغرباء الذين يظهرون فيه فى كل المواسم وإن بصورة أكبر فى موسم الصيف الحار دون أن تبدو على أى منهم ممن ظهروا مرارا أنهم قد زاروا هذا المكان من قبل، سعيدة أشارت إلى أنها سمعت من بعض الغرباء أنهم يعرفون البيت الواقع داخل مزرعة صغيرة بأنه البيت الذى تقبع فيه امرأة جميلة فى انتظار شخص ميت! انتظار حاسم لا تشوبه العجلة ولا ارتجال الصدف، بل إن أحدهم تجرأ يوما وطلب من سعيدة بت نور الله أن تمهد له ليتزوج من سميرة، قال موضحا: العمر قصير كيف نقضيه فى انتظار الموتى!

أوضحت له سعيدة بت نور الله أنه لم يوجد دليل بعد يؤكد موت نور الدين وأن النبوءة الوحيدة التى تبقت عنه تؤكد أنه لم يمت لأنه شاهد فى صغره مشهدا لا يراه إنسان ما ويموت قبل أن يورثه لأحد أبنائه، ضحك الغريب وقال أن ذلك أمر لا يمكن تصديقه، عارضا خدماته لكشف مصير الغائب، أحضرت له سعيدة وعاء مملوءا بالماء، طلب الغريب إحضار أحد الصبية، نادت سعيدة على بدر الدين وسمل لكن الغريب قال إن الصبيين كبرا ولا يصلحان للمهمة، يحتاج لصبى أصغر سنا لم يسبق أن تعرض لصدمة خوف من كلب، ذهبت سعيدة لتستدعى أحد صبية جيرانهم، وجدت باب البيت المجاور مفتوحا وجارتهم ست البنات تجلس على عنقريب فى سقيفة وسط الفناء معروشة بالقصب الجاف وجريد النخيل، نادت ست البنات على حفيدتها لتعد الشاى للضيفة التى أوضحت أنها متعجلة وأن شخصا ما يجلس بانتظارها، عادت سعيدة بعد قليل إلى البيت ومعها صبى صغير إضافة لشقيقته الفتاة الصغيرة الجميلة التى أصر الصبى أن تحضر معه. كان ساتى وسمل وبدر الدين يعدون أحواضا صغيرة لزراعة الملوخية والجرجير والبصل حين مر الموكب الصغير بجانبهم، خفق قلب ساتى للفتاة التى لم يرها من قبل حتى إنه ترك المعول يسقط من يده وتبع الموكب الصغير، بسط الغريب يده فوق إناء الماء وقرأ تعاويذه ثم نادى على الصبى الذى بدا خائفا، أخرج الغريب قطعة حلوى من جيبه فتشجع الصبى الصغير وتقدم ليشاهد داخل الإناء. كان ساتى يستمع وعينه على الفتاة الجميلة. تكلم الصبى وكأنه منوّم مغناطيسيا عن المشهد الذى كان يراه أمامه. انتبه ساتى إلى أن وصف الصبى كان ينتزع من ذاكرته صورا مزقت قاع

ذاكرته: الجزء الآخر من النبوءة الذى رآه والده ولم يره عمه نور الدين. مجموعة من الجنود السكارى يتجمعون حوله وهو مقيد إلى شجرة باباى، دوى إطلاق النار، انجلى الدخان الكثيف بعد قليل وترقرقت المياه فى الإناء قبل أن تستقر بعد قليل فى ذاكرة ساتى صورة واضحة كثيفة، شاهد للمرة الأولى فى حياته عمه نور الدين، رأسه الوسيم مهشم بطلقات الرصاص وعيونه لا تزال شاخصة إلى المجهول.

بدأت الصورة فى اللحظة نفسها فى الانحلال فى ذاكرته، حاول الإمساك بأى من تفاصيلها دون جدوى، لم يلاحظ أن تلك كانت إشارة شؤم إلى موت قادم عبر السنوات، موت تستحيل مع قدومه المؤكد بقاء تلك الصور دون وجود ذاكرة بديلة ترث تلك الصور تماما مثلما حدث لعمه نور الدين.

رغم زوال الصور تماما من ذاكرته يشعر ساتى براحة نفسية، أنه تخلص من شىء لم يكن يستطيع حتى تحديد شكله أو مصدره، تلاحظ سميرة أنه بات أكثر هدوءا، معتقدة أنه يحرز تقدما فى التأقلم مع التغيير الذى يمر به بسبب السن. سعيدة بت نور الله اقتنعت تماما بعرض الغريب لكنها أوضحت له أنها لا تستطيع إبلاغ سميرة بذلك، أولا لأنها متأكدة أن سميرة لن تصدق ذلك على كل حال، كما أنها تخشى عليها من عواقب الفراغ الذى سيملأ عالم انتظارها لابن عمها الذى لا توجد فيه ولا ثغرة واحدة للشك أو النسيان. أوضح الغريب أن ذلك العالم يمكن اختراقه وأن الملابس وأطقم المفارش التى أفنت عمرها فى إعدادها يمكن استخدامها لشخص آخر بمجرد توفر إرادة بديلة، لم يشك الغريب فى أن من يملك مثل تلك الطاقة لانتظار ميت سيكون مؤهلا أكثر لاستبداله بشخص حى، وعرض إمكان قيام تجربة إقناع أخرى أمام سميرة، وأن بإمكانه أن يوفر لها دواء يساعد على مداواة جروح القلب، وعرض عددا من تمائم المحبة التى تكفى لإنبات الزهور حتى فى الصخر. وعدته بت نور الله أنها ستحاول، لكن الغريب الذى كان على وشك المغادرة للحاق بقافلة من تجار الحمير نظر إلى السماء وقال: لم يتبق وقت طويل!

حين يجلسون سويا فى الأمسيات كانت سعيدة تحاول أن تضعها فى الصورة التى كشف عنها العرّاف الغريب دون أن تتورط فى أية تفاصيل: تصف صورة شخص غامض يراه العرافون مربوطا فى شجرة باباى ومضروبا بالرصاص، تموه تفاصيل وجهه حتى تحقق نقل الصورة إلى ذاكرة سميرة تدريجيا، تشعر أن سميرة تحقق تقدما فى الاتجاه المعاكس، تزداد تشبثا وجنونا فى ترتيبات استعدادها لاستقباله، سعيدة كانت تخشى أن تكون التفاصيل التى تذكرها ليست حقيقية وأن الصورة الأصلية ربما تسربت تفاصيلها بسبب ضعف ذاكرتها واختلطت مع تفاصيل صور أخرى

ترقى إلى زمان رحلتها إلى النيل الأبيض، حتى إنها ذهبت لإحضار صبى الجيران ليصف لها الصور التى رآها فى الماء يوم استدعاه العرّاف الغريب. وجدت بالفعل أن الصبى كان يصف الواقعة بشكل مختلف، اعتقدت فى البداية أن الصبى كان يكذب، دون أن تلاحظ أن الواقعة التى شاهدها نور الدين على صفحة النهر يوم رأى شبح أليك الجميلة الذائب فى مياه المغيب، كانت تتحول باستمرار ويستحيل تثبيتها ضمن مدار واحد.

ساتى منذ ظهور عمه مصطفى كان ينام قريبا منه خارج البيت فى فناء المزرعة تاركا الصبيين الأصغر منه سنا ينامان فى الفناء قريبا من سميرة وسعيدة. بعد اختفاء مصطفى بقى ساتى يخلد للنوم مساء فى فناء المزرعة وحيدا، منذ ظهور الفتاة الجميلة فى البيت مع شقيقها بطلب من العراف الغريب، كان يعانى من قلق شديد، فقد شهيته للأكل وللحديث مع بقية أفراد الأسرة، شاعرا بأنه يعيش زمنا آخر كانت إشاراته تتبدى فى شعور غامض يجتاحه كلما تعالت نغمات طنبور فى الجوار أو كلما استمع إلى غناء القمرى فى ساعات الضحى. تجرأ فى اليوم الرابع على تسلق سور المزرعة فرآها نائمة بجانب شقيقها وجدتهم فى ضوء القمر. اقترب منهم بخطوات حذرة مثل قط، كانت الفتاة نائمة على مبعدة قليلا من جدتها وشقيقها، سمع ساتى صوت غطيط يتعالى من الطرف الآخر من الفناء فعرف أنه والد الفتاة، وقف يتأمل وجهها فى ضوء القمر. جعله نباح كلب يجفل ثم يتراجع بهدوء. عند عودته إلى المزرعة بدأ فى تخيل تفاصيل جسدها، تخيلها دون ثياب فعذبته الصورة، قبل أن يستغرق فى النوم، فى اليوم التالى عاود مغامرته الليلية. لم يلاحظ أنه لم يسمع صوت غطيط الأب النائم، وقف يتفرس فى وجه الفتاة، وفجأة أطبقت على عنقه يد قوية من الخلف ويد أخرى أطبقت على فمه ثم سحبته بعيدا عن المكان، رأى ساتى والد الفتاة بوجهه الصارم وملامحه القاسية، سأله بهدوء كيف دخل إلى البيت وماذا يفعل هنا، تلعثم ساتى ولم يجب، فتح الرجل باب البيت وقال له لا تعتقد أننى نائم لقد وجدت آثار أقدامك صباح اليوم وتوقعت حضورك مرة أخرى، ستذهب الآن وسيكون لى كلام غدا مع أهلك.

لم ينم ساتى طوال الليل، وفكر فى الهرب دون أن يعرف إلى أين. فى النهاية استسلم إلى نوم مشوش، فى الصباح جاء جارهم عبد الكريم إلى البيت، تحادث مع سميرة واقفا خارج البيت.

بعد قليل نادت سميرة على ساتى. لم يستطع ساتى رفع عينيه لمواجهة عينى سميرة ولم يرد على سؤالها حول سبب دخوله إلى بيت جيرانهم ليلا وهم نيام، استجمع كل شجاعته وأفرغ كل مرارات ليالٍ من القلق:

أريد الزواج من شمس!.

رأت فيه سميرة نفس صورة عبد الدائم وهو يذهب لخطوبة ألويل قبل سنوات.
أجفل الرجل وقال: ذلك مستحيل، شمس مخطوبة منذ صغرها لابن عمها!
قالت سميرة للجار الغاضب: ربما يجب أن تسأل شمس إن كانت ترغب..
قاطعها الرجل بغضب: هذا الأمر غير مطروح للنقاش، هذه تقاليدنا!
تردد قليلا ثم قال: سمعت أن جدة الصبى من الجنوب؟
قالت سميرة: نعم ووالدها كان ملكا...
انتهى الأمر. قال عبد الكريم وهو يتأبط عصاه خارجا: لقد راعيت أنكم جيران لكن لو جاء الصبى إلى بيتنا مرة أخرى سأقتله، أرجو أن يكون ذلك واضحا.
عنّفته سميرة بعد خروج الجار: متعجل مثل أهلك كلهم، لا تزال صغيرا، لا أحد يقبل بتزويجك فى هذه السن، كيف ستستطيع العيش بدون عمل؟
قال ساتى: لكنه يرفض لأن جدتى من الجنوب!
قالت سميرة: لم يقصد ذلك، جدتك كانت امرأة عظيمة. بعض الناس يخافون ممن لم يعش بينهم، تلك هى الحكاية.
لم يبد عليه الاقتناع. حاولت سميرة أن تخفف من شعوره بالحزن:
ستتزوج من هى أجمل منها، لا تحزن عليها. أعادته لينام معهم فى فناء البيت لتراقبه أثناء الليل. وحاولت شغله أثناء النهار بمهام إضافية لينسى حبه وكلفته برعاية الصبيين سمل وبدر الدين ليشعر بالمسئولية. يوم الأربعاء ذهب معها إلى السوق، بالصدفة توقفا لشراء بعض مستلزمات البيت حين وجدا شمس مع شقيقها، تبادلا خلسة نظرات حزينة. حيتهما دون أن يلاحظ شقيقها شيئا، قبل أن يغادرا المكان. حين عاد ساتى إلى البيت ترك سمل وبدر الدين يلعبان لعبة الاختباء وسعيدة وسميرة تطبخان الملوخية والويكة لطعام الغداء، وذهب ليجلس تحت شجرة المانجو، قاربت عطلة الصيف على الانتهاء وسيعودون بعد أسابيع إلى المدرسة. أخرج ورقة وقلما وكتب أول وآخر رسالة عاطفية فى حياته، كتب من قبل عدة رسائل لبعض أهل القرية، تطلب منه سعيدة بت نور الله أحيانا أن يكتب لها رسالة لأقارب منسيين هجروا القرية منذ سنوات بعيدة، كذلك العم حسن الذى يعمل فى المزرعة يطلب منه كتابة رسائل أحيانا لولده الأكبر الذى يعيش فى الخرطوم، إضافة إلى بعض النسوة الأخريات فى الجوار اللائى كن يطلبن منه كتابة رسائل إلى أبنائهن وبناتهن المسافرات. أخبرته سميرة مرة أن عبد الحليم المؤذن فى القرية يشعر بالغيرة منه لأن النسوة كن يحضرن له فى الزمن الماضى ليكتب لهن الرسائل بمقابل مادى ضئيل ومجانا أحيانا لكن المهم عنده أن ذلك كان أفضل وسيلة له للتسلية

والحصول على الأخبار التى لا يفرج عنها الكثيرون من صدورهم إلا عند اضطراراهم لكتابة رسالة لقريب بعيد لشرح مشكلة ما. عند ظهور ساتى فى القرية ومعرفة الكثيرين لمقدرته على كتابة رسائل بخط جميل وواضح، أصبح عبد الحليم معزولا عن أخبار القرية ومشاكلها.
لم تكن لساتى أدنى فكرة كيف سيقوم بتوصيل رسالته إلى شمس حين بدأ فى كتابة الرسالة. سمع صوت سمل وبدر الدين يبحثان عنه لتناول الغداء لكنه لم يكترث لهما، حين مالت الشمس للمغيب كان قد أكمل ثلاث صفحات أفرغ فيها شحنة روحه ثم قرأها ومزقها وعاد يكتب مرة أخرى قبل أن يقرر كتابة رسالة قصيرة جدا. عاد إلى البيت لم يكن جائعا أعدت له سعيدة الغداء والشاى. حين رقد فى فراشه يرقب النجوم مساء بدأ يفكر من يمكنه تسليم الرسالة إلى شمس، قرر فى البداية أن يحاول ذلك فى سوق الأربعاء لكنه فكر أنها ربما لا تحضر. فى الصباح استيقظ على صوت نورا الأعرابية وهى تثرثر مع سميرة تحت شجرة النيم فى الفناء، تحضر نورا الأعرابية إلى القرية كل عدة أيام وتطوف معظم بيوتها قبل أن تغادرها. تشارك بأناشيدها الدينية فى مناسبات الزواج وتضرب الرمل وتبيع أيضا أثناء تجوالها مصنوعاتها اليدوية من طواقى الرأس والمناديل التى تطرز عليها أسماء من يطلبونها.
انتظر ساتى بجانب باب البيت حين سمع صوت نورا وهى تجمع حاجياتها، بسرعة فهمت المطلوب، وضعت الرسالة فى جيبها وأكملت جمع حاجياتها وانطلقت، فى العصر أثناء ذهاب الرجال إلى الحواشات، فى فناء بيت الحاج عبد الكريم جلست نورا وسط بضاعتها وبدأت تضرب الرمل فيما تجمع حولها الصبية، ذهبت والدة حليمة لتعد القهوة، انتهزت نورا الفرصة ودست الرسالة فى يد الفتاة التى تراجعت بعيدا واختبأت فى مخزن الحبوب لتقرأ الرسالة. كانت الرسالة من سطر واحد سينتظرها ساتى كل يوم أربعاء وقت ذهاب والدها إلى السوق، إذا حضرت مسرعة ولم تجده عليها وضع عصا صغيرة من جريد النخيل بجانب مدخل المعبد..
الأربعاء الأول انتظر ساتى طويلا فى المكان الذى حدده لها، بقايا معبد من حقبة مملكة مروى قريب من نهر النيل تحيط به أجمة كثيفة من أشجار النخيل والطرفاء. يندر حضور شخص ما إلى المكان بسبب شياطين المغيب التى تجوب المكان مخلفة خيوطا ضوئية تبقى معلقة فى الفراغ حتى بدء تفتح ضوء النهار.
مضت أسابيع طويلة دون أن تظهر الفتاة. ظهرت فتاة أخرى تسحبها جدتها من خلفها، عجوز شريرة المنظر كأنها خرجت من إحدى الأحاجى. لا علاقة بين منظرها ومنظر الفتاة البالغة الجمال التى تسحبها من خلفها وهى تعبر

دون أن تنظر أمامها محدثة فوضى بعبورها فوق كل شىء، سحقت أكوام الطماطم فى التراب وبعثرت أكوام الحلوى التى تعرضها الأرامل للبيع وأطاحت أرضا بزجاجات السمن البلدى دون أن تعبأ بصياح الباعة وصراخ النسوة وصياح الصبية. قبل أن يسود المكان صمت رهيب، سرى مثل الصاعقة فتحول المكان إلى مقبرة من أحياء صعقتهم الدهشة. كانت الفتاة الصغيرة الفائقة الجمال تعبر مثل طيف من خلال الغبار المتجمد فى الهواء، والصخب الذى كان يتحول إلى صمت خارق عند مرورها.

لا تكترث العجوز لأى شىء، جاءت من المجهول تسحب من خلفها الفتاة الصغيرة. تميمة جمال مهول يفتح الأبواب لبحث مضن استهلته منذ سنوات، منذ أن اختفى ولدها البكر فجأة فى اللحظة التى كان سيتوج فيها كجورا. لم تصدق الشائعات التى أكدت أن عملاء للحكومة العسكرية اختطفوه بسبب اتهامات قديمة بعلاقته بحركات التمرد. لكنها رجحت أنه كان ضحية سحر أسود حوله إلى عاشق تجول فى قرى الجبال متأبطا ربابة أم كيكى يعزف عليها فى الليالى المقمرة ألحانا سحرية كانت تخترق أحلام الناس أثناء عبوره. وأن ألحانُه السحرية كانت تشفى المرضى وتعيد ذكريات أزمنة أخرى إلى ذاكرة مسنين فقدوا التواصل مع الوقائع اليومية بسبب وهن الذاكرة.

لم يكن صعبا على العجوز فى البداية تتبع أثر ابنها بتتبع آثار الألحان التى مضى ينثرها فى طريقه، كانت تشم رائحة ألحانه فى عبق الزهور الغامضة التى أنبتتها ألحانه السحرية. صنعت لحفيدتها بنفسها فستانا من قطعة واحدة يغطى الجسم كله والوجه وتركت لها ثقبين صغيرين لترى من خلالهما خوفا من المشاكل التى يمكن أن يثيرها جمال الفتاة الخارق أثناء عبور الصحراء قبل أن تنضم إلى قافلة من تجار الحمير كانت على وشك قطع الصحراء متجهة شمالا، مضت تفقد رائحته تدريجيا كلما توغلوا فى الصحراء، رغم أن تلك كانت إشارة مشئومة لاحتمال موته لكن بصيصا من الأمل دفع العجوز لتواصل الرحلة حين كانت تميز خيوطا بالية من رائحة ألحانه أثناء هبوب خماسين الصيف التى عطلت سير القافلة بسبب الغبار الكثيف الذى يحجب الرؤية. فى كل الأحوال لم يكن هناك من مناص من مواصلة الرحلة، فبحر الرمال كان يحاصرهم من كل جانب ومغادرتهم للقافلة كان يعنى احتمال التوهان فى الصحراء. بعد وصول القافلة إلى حزام القرى الواقع على حافة الصحراء قريبا من نهر النيل، اختارت العجوز المكان الذى وجدت أن رائحة زهور ألحان ابنها تهب فيه أكثر من أية مكان آخر، لاحظت أن الرائحة كانت لا تزال ضعيفة ويصعب تتبع مسارها لكنها كانت تصبح أكثر كثافة كلما اقتربت من نهر النيل. شيدت مع

حفيدتها خيمة صغيرة من خرق الملابس وجريد النخيل بعيدا قليلا عن القرية وقريبا من نهر النيل.
ساتى حضر إلى السوق متأخرا شاعرا بالإحباط بسبب عدم تلقيه أية إشارة من شمس أو حتى ردا على رسالته. فى البيت كانت سميرة قلقة بسبب تأخره خارج البيت، فى تلك اللحظة كانت سعيدة بت نور الله تراه يعود أكثر حكمة من سفر بعيد، رأته جالسا فى رصيف ميناء مهجور وسط حفيف أجنحة الغربان التى حجبت ضوء النهار.
حين وصل ساتى إلى السوق كان الصمت قد أطبق على المكان، الباعة يتعاملون بالإشارة ولا أحد يملك أية سلطة حتى رجال الشرطة الذين اقتحموا المكان خوفا من استغلال البعض للفوضى التى يثيرها ظهور الفتاة الخارقة الجمال لعمل عدائى ضد السلطة وقفوا مثل رجال آليين يرقبون العالم من حولهم بحياد من خلف واجهة عالم آخر انفصل بهم.
وصل ساتى فى تلك اللحظة، شعر بالصمت الخارق يتسرب إلى عظامه. رآها أمامه تنسحب من مشهدها القديم المدفون فى الذاكرة لتظهر مع عجوز تشبه السلحفاة فى هذه السوق النائية عن النهر الذى ذابت فيه صورتها فى قلب السافنا. أزاحته العجوز بيدها من الطريق لتواصل بحثها عن ابنها بين ثلة من البدو يجلسون تحت أشجار النيم أمام المحكمة الشعبية انتظارا لحاجب المحكمة الذى ينادى على القضايا. انتبه ساتى حين أزاحته العجوز إلى أنه كان يرى العالم من خلال ذاكرة والده الراحل، أنه استعاد المشهد الموروث فى ذاكرته لشبح الفتاة الجميلة الذائب على صفحة نهر فى عمق الذاكرة.
قال: إنها أليك الجميلة.
ثم مضى خلف الفتاة وجدتها مثل منوم مغناطيسيا.

أسبوع كامل مضى لم ير فيه أحد فى المزرعة ساتى إلا نادرا، شوهد ساهما يقضى أمسياته وحيدا. يوم السوق التالى تجمعت سحب سوداء فوق القرية. كان السوق مزدحما شبيها بالأسواق التى تسبق الأعياد، عيد الفطر أو عيد الأضحى، لاحظ ساتى وجودا كثيفا لرجال الشرطة، سمع من بعض الباعة أن الشرطة ستلقى القبض على العجوز وحفيدتها لأنهما على صلة بإحدى منظمات التمرد يقودها الابن المختفى الذى كانت العجوز تنشر رسائله ضد السلطة تحت غطاء البحث عنه.

عند منتصف النهار تماما ظهرت المرأة تسحب من خلفها حفيدتها. غرق المكان فى الصمت فى اللحظة التى تقدم فيها رجال الشرطة. من سيماء الصرامة الرسمية فى وجوههم بدا واضحا أنهم كانوا معزولين من تأثير جمال الفتاة الخارق فى المكان، ضيقوا من دائرة حصارهم فيما بدت العجوز غير مكترثة لهم، تفرست فى ملامحهم دون أن تتأثر رغبتها التفتيشية. لم تجد أثرا على وجود ابنها فى وجوههم، بل موته، أمسك أحدهم بخناقها، مع صرخة العجوز تحرك جدار بشرى من الناس الذين تقاطروا لحماية الفتاة الجميلة والذين بدا كأنهم كانوا فى انتظار إشارة ليستعيدوا الوعى بالكارثة الوشيكة. انطلق وابل من الرصاص مثل المطر. حين انجلى الغبار، كان الناس قد ولوا الأدبار جميعا عدا عدة جثث كانت موزعة فى المكان من بينها جثة العجوز.

اختفت الفتاة الصغيرة، قال البعض إنها تبخرت لحظة انطلاق زخات الرصاص الكثيف وزعم البعض أنها شوهدت تطير فى دائرة حلزونية من الغبار قبل أن يبتلعها الفضاء. اختفى ساتى أيضا فى الوقت نفسه. بحثوا عنه فى كل مكان وأرسلوا مناديا يجوب القرى المجاورة وهو يسرد أوصاف الفتى. الجثث التى عثر عليها كانت معظمها لغرباء من القرية جذبتهم أخبار الفتاة الجميلة التى تتسلق ضفائرها ضوء القمر كما زعمت الشائعات.

سميرة أعادت لها عمليات البحث عن ساتى ذكرى أيام البحث عن خطيبها الغائب، وذكرى المظاهرة التى مضت تتضخم كلما توغلت داخل مدينة جوبا يقودها أفضل من يقتفى الأثر وقتها: دينق ساتى الشهير بدينق الكذاب. بحثوا عنه فى كل القرى الواقعة بحذاء نهر النيل وحتى مضارب الأعراب الرحل فى تخوم الصحراء، وشارك خبراء فى اقتفاء الأثر، كانوا يكتشفون فى كل مرة أن آثاره اختفت وكأنها تبخرت فى الهواء.
ستمضى أيام الحزن بطيئة رتيبة. سميرة تشعر بقلق شديد بسبب غياب الفتى رغم محاولات سعيدة بت نور الله لبث الطمأنينة فى قلبها بأن الصبى حى وأنها تراه يجلس حزينا فى ضوضاء مغيب ناء فى ميناء مهجور لا شىء فيه سوى ضجيج الغربان وغناء حوريات البحر المنسيات. سميرة مضت تحاول إخفاء دموعها، تقول الصبى اليتيم أمانة فى أعناقنا، مات أبوه وجده وجدته، وربما تظهر أمه غدا، ماذا نقول لها؟.
شعرت بالوحدة خاصة أن فاطمة والتى أصبحت أكثر قربا منها تعين أن تعود فى رحلة أخرى لتعيش مع زوجها وابنتها بعد أن عاد الزوج وتصالح معها.
استيقظت سميرة فزعة، فقد رأت أثناء نومها ألويل جالسة فى بهو البيت دون أن تعرف متى وكيف وصلت إلى القرية. وفيما كانت سميرة ترحب بها، كانت تثرثر فى كل شىء لتلهى المرأة عن السؤال عن ولدها. لكن المرأة كانت مشغولة بحياكة ثوب طويل من الصوف الملون، رفعته فجأة فى وجه سميرة، فشاهدت سميرة جدتها الكبرى تقود الصبيين من يديهما فى طريقهما إلى النهر.
لم تعرف سميرة كيف تتصرف، كان مصطفى مختفيا منذ أشهر عديدة، لابد أنه عاد إلى الجنوب كما أبلغها بنيته فى استئناف عمل والده القديم فى تجارة الأخشاب، كان قد قضى سنوات منذ طرده من الجيش وسجنه أعقاب اتهامه بالمشاركة فى محاولة انقلابية. فكرت أن تسافر بنفسها بحثا عن الصبى، خرجت إلى القرية علها تجد من يمكن أن يساعدها، كان هناك تاجر يسافر أحيانا إلى الجنوب، ذهبت إلى بيته أملا فى أن تجده وتعرف شيئا عن أخبار مصطفى لكنه كما عرفت من زوجته، كان غائبا منذ عدة أشهر وكانت زوجته نفسها قلقة عليه وليس لديها من طريق للاتصال به، بعد أن أرسلت عدة برقيات لم تتلق عليها ردا.
أعطت فكرة البرقية أملا لسميرة، تذكرت أن والدها وعمها كانا يتلقيان قبل سنوات أحيانا برقيات إبان فترة إقامتهم فى الجنوب. ذهبت إلى مكتب البريد الصغير فى القرية، لم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفية إرسال برقية، ولم تكن تعرف عنوانا لمصطفى، طلب منها موظف البريد أن تتذكر اسم تاجر

أو شخص معروف فى جوبا يعرف مصطفى ويستطيع الوصول إليه، ويمكن إرسال البرقية باسمه، كانت السنوات قد طالت وتبخرت معظم صور الناس هناك من ذاكرتها، لكنها تذكرت رجلا كان يعمل فى شرطة المدينة وكان يزورهم أحيانا، أرسل موظف البريد البرقية التى تطلب من مصطفى أن يحضر بسرعة لأن ساتى ابن عبد الدائم كان مختفيا منذ فترة.
لم تصل البرقية مطلقا، رد ضابط الشرطة على البرقية بعد يومين بأنه لم ير مصطفى فى زيارته الأخيرة لجوبا وأنه ربما عاد إلى الخرطوم وقال إنه سيحاول أن يبحث عن أخبار الفتى الغائب إن كان موجودا مع والدته دون أن يشعرها بوجود مشكلة، وأنه سيرسل لها بمجرد ظهور أخبار عن مصطفى أو عن ساتى. والحقيقة أن الرجل اضطر للكذب حتى لا يثير قلق سميرة على مصطفى، فالعقيد مصطفى كان قد زاره قبل أسابيع وكان يبدو ساخطا على الوضع وتحدث معه حول انتهاكات النظام لاتفاقية أديس أبابا ثم سمع بعد أيام باشتراك مصطفى فى محاولة فاشلة للاستيلاء على مطار المدينة، قتل عدد من الجنود فى المحاولة لكن مصير مصطفى بقى مجهولا خاصة أن اسمه لم يظهر ضمن أسرى المحاولة من الجنود وضباط الصف.
تمضى الأيام ثقيلة بسميرة، بين الترقب والقلق والزيارة اليومية غير المجدية لمكتب البريد، الشاب الجديد الذى وفد حديثا للقرية من قرية مجاورة ليعمل فى مكتب البريد، يحاول أن يخفف عنها وقع عدم وجود رسالة أو برقية لها، يقول لها:
عدم وجود أخبار هى دائما أخبار جيدة..
لكن حالة خوفها من الموت تتفاقم، كوابيسها الليلية تتزايد وتيرتها، ترى ألويل وهى تقترب لتنظر فى عينيها قبل أن تعود إلى لامبالاتها أثناء انشغالها فى حياكة ملابس أطفالها، كلما فرغت من ثوب ما كانت ترفعه مع وميض ضوء فاتر يترقرق من حولها مثل شلال من النور، لتعلن اسم أحد أبنائها الذى صنعت الثوب من أجله. ثم تختفى ألويل فجأة ويتراجع شلال نورها مفسحا المجال لعقرب ضخم أسود اللون يتقدم منها.
قالت سعيدة بت نور الله: إنها عين ساحرة، لابد أنه موظف البريد أو شخص ما. أحضرت مبخرا من الفخار ثم وضعت عليه قطعًا من الفحم المشتعل وبخرتها بالكمون الأسود واللبان الدكر، ثم وضعت يدها على رأسها وقرأت بعض التعاويذ لإخراج العين.
شعرت سميرة ببعض التحسن، تعود الأشياء من حولها لإيقاعها الطبيعى ولا تصبح مجرد إشارات للموت، لكن قلقها على ساتى الغائب لم يخف، تراه سعيدة هائما على وجهه يبحث عن نور الشمس فى متاهة غابة استوائية يمتد شجرها الأسود حتى آخر العالم، ثم تراه يضرب دون هدى

فى صحراء شاسعة وقد انحنى رأسه إلى الخلف وهو يبحث عن نجوم تهديه فى مسيره الطويل.
جاء شهر شعبان وفاحت فى طرقات القرية رائحة الحلو مر، الذى تصنعه النسوة من الذرة والكركدى وبعض التوابل ليستخدم كمشروب مغذ للصائم فى شهر رمضان.
فى فترة الصوم يذهب بدر الدين وسمل أحيانا إلى المسيد ليؤديا صلاة التراويح، حين لا يكون هناك ضيف يقيم فى المضيفة. سعيدة تصنع العصيدة لطعام الإفطار الذى يحمله سمل وبدر الدين إلى المسيد. مع اقتراب عيد الفطر عادت فاطمة إلى البيت، عادت برفقة فتاة صغيرة فائقة الجمال، ابنتها سميرة. كانت قد حصلت على الطلاق من زوجها الذى تزوج مرة أخرى، سمح لها بأن تصحب الفتاة معها. حكت أنها تشاجرت معه فى المرة الأخيرة حين سمعت من بعض الشباب الذين زاروا المنطقة للمشاركة فى حصاد التمور أن ساتى ومصطفى اختفيا منذ شهور، وعرفت أن سميرة ستكون فى حال سيئة ورغبت فى السفر لتبقى بجانبها لكن زوجها اشترط قبل أن يوافق ألا تعود مرة أخرى، وهكذا اصطحبت ابنتها ذات يوم حار فى آخر أسبوع فى شهر رمضان واستقلتا مركبا حملهما إلى القرية، أعاد وصول فاطمة وابنتها الجميلة إلى البيت شيئا من الفرح الغائب عن المكان منذ شهور طويلة. ابنتها سميرة كانت قد أسمتها عند مولدها قبل سنوات على اسم ابنة عمها سميرة، فى ذلك الوقت لم تكن قد رأت سميرة بعد ولم يف والدها بوعده أن يسافرا سويا إلى الجنوب لرؤية أبناء عمومتها. كان والدها دائما مشغولا رغم أنه كان يبدى دائما رغبته فى السفر لزيارة أشقائه، بسبب الحب الشديد الذى مضى ينمو مع الأيام لابنة عمها، عاطفة غريبة كانت تزيدها قصص المسافرين الذين كانوا يقابلونهم فى الجنوب، كانت تزيدها سحرا وغموضا، فتتخيلها دائما فتاة جميلة تختلط خصلات شعرها الطويلة بالنباتات المتسلقة التى تخيلتها تغطى مداخل البيوت، التى بدت لها بيوتا جميلة بأشجارها الكثيفة وجدرانها التى تغنى الببغاوات فوقها فى ساعات الأصائل. حين تزوجت فاطمة ورزقت بطفلتها لم تفكر فى اسم غير اسم سميرة رغم أن زوجها كان يصر على أن يسميها على اسم والدته المتوفية. رضخ لإلحاح فاطمة لأنه كان لا يزال يحبها فى ذلك الوقت. استأنفت فاطمة الحياة فى البيت، خففت من حزن سميرة بقناعتها أن ساتى سيعود وأن سعيدة لم تكذب يوما حين كانت ترى القادمين عبر الزمن، حكت لها قصة غائب اختفى عدة سنوات من القرية ويئس أهله من حضوره لكن سعيدة كشفت لوالدته أنها تراه قادما مع قافلة من تجار

الحمير تاهت فى الصحراء بسبب عاصفة أخفت ملامح الطريق، وبالفعل عاد إلى القرية بعد شهور.
فى أمسيات ضوء القمر يتسرب صوت سمل يعزف على الطنبور ويغنى بمرافقة فاطمة:
قالو ترك سكونك يا دار وين حبيبى. يمتلئ فضاء البيت بالصوت الملائكى، فتتذكر سميرة خطيبها الغائب، وتتذكر مصطفى، لا تدرى لماذا بدأت تشعر فى الفترة الأخيرة ببعض الحنين إليه، تتذكر النهار البعيد الذى ظهر فيه قبل سنوات وكيف اخترق دون ّإنذار حلم انتظارها اليائس ونفخ فيه من روح جسارته وحبه المستحيل، حتى إنها شعرت آنذاك بأن زيارته منحتها طاقة للانتظار لمائة عام أخرى.
شعرت بالحزن لرحيله، وشعرت للمرة الأولى بالذنب حين تخيلت حدوث مكروه له، عرفت أنه كان يريد أن يترك مغامراته العسكرية الفاشلة ويتقاعد إلى جانبها بقية حياته، بل إنه شرع منذ يومه الأول بعد عودته فى العمل بالزراعة رغم قلة خبرته. شعرت بحزن عميق لأنها دمرت أحلامه من خلال رفضها له. قررت أن تعود بعد عيد الفطر إلى مكتب البريد وترسل برقية أخرى لتسأل عن أخباره. لكن ما حدث يوم عيد الفطر أنساها ذلك.

سمل وبدر استهلا عطلة الصيف، لاحظت سميرة أن الصبيين يمران بطور المراهقة، كانا يحومان طوال اليوم حول سميرة الصغيرة التى تفتحت عن صبية بالغة الجمال. ولتشغلهما عن الحب الذى بدا لها كارثة عائلية موروثة شجعتهما ليبحثا عن عمل فى المزارع القريبة. بدر لم يبد رغبة فى البداية فى العمل كان ميالا للحرية، يسعى لوضع الأشياء فى مدار رغباته دون أن يلتزم بأية شىء في المقابل، لكنه استجاب لبعض زملاء المدرسة الذين كونوا فرقة مسرحية متجولة كانت تجوب القرى، وتؤدى عرضا مسرحيا مصحوبا بغناء وعزف على الأكورديون والإيقاع، بدر كان قد حفظ عددا من الأغانى أيام الغناء مع فاطمة وسمل فى ضوء القمر حيث لغنائهما سحر مواسم منسية تعبق برائحة السافنا وذكريات أزمنة أخرى، أزمنة تتسرب تفاصيل وقائعها فى ألحان غنائهما مشحونة برائحة النوّار وضوء النهار وفوضى مشاهد حياة منسية، حين شاهد الأخوة عبد الدائم ونور الدين صانع المطر يؤخر من أجلهما غروب الشمس باستخدام روث الأفيال، مقاطع من مواسم فرح منسية، ضجيج نسوة فى أمسيات أزقة قرى مجهولة بحذاء المستنقعات. أصوات بعيدة ومشاهد لوجوه غير معروفة.

قبل سفر الفرقة شمالا كانوا يجتمعون تحت أشجار النيم، فى فناء المدرسة القديمة جوار نهر النيل لعمل بروفات المسرحية، كانت قصة المسرحية بسيطة جدا تصور حياة رجل يقضى سحابة نهاره وليله فى شرب الخمر ولا يستطيع تقديم أية شىء مفيد للعالم، يتطوع قريب له يعمل خارج الوطن ويشترى له عربة كارو يجرها حمار ليحصل على بعض المال من العمل فيها، ينقل الحطب والأسمدة ويذهب يوم السوق لمساعدة النسوة المسنات فى توصيل أشيائهن القليلة إلى بيوتهن، لكنه يصر على الشراب أحيانا أثناء العمل. وذات مرة يترك الكارو ينقلب بسبب عدم مقدرته على التحكم فيه فيما أرجل الحمار فى الهواء وظهره أرضا، وفيما يرقد هو أرضا دون أن يقوى على الحراك يتقدم منه رجل مسن يعمل إماما لمسجد القرية

ويقول له: (دة شنو يا زول، أر حجيكومو؟) يعنى كيف تفعل ذلك وأنت قد سبق لك الحج إلى بيت الله الحرام.
فيقول: (زربو؟ ما بنمشى تاني!) (يعنى هل قاموا بإغلاق الأماكن المقدسة؟ يمكننا أن نحج مرة أخرى!)
اكتشف بدر موهبته فى العزف على الأكورديون، رغم أنه وبسبب القلق لم يكن ليستمر كثيرا فى ممارسة أى من هواياته الكثيرة، لكنه كان مفتونا دائما بأية جهاز أو آلة تصدر صوتا.
سمل وجد عملا فى مزرعة العمدة القريبة منهم، ينقل زبل البهائم لتسميد أشجار الموالح، وجد سمل العمل مسليا خاصة فى وجود رجل اسمه الطيب، يعمل مع الطيب فى نقل زبل البهائم لتسميد الموالح، يحب العمل مع الطيب رغم أن الطيب لم يكن محبوبا فى القرية فلم يعرف له أحد بلدا أو أهلا، هبط إلى القرية ذات شتاء مع قافلة حكومية كانت تحارب إحدى الآفات التى أصابت أشجار النخيل ثم أعجبته مزرعة العمدة وطلب أن يعمل فيها، صاحبها كان قد سئم من عدم استقرار المزارعين الذين كانوا يعملون فى المزرعة، يسافرون كثيرا ولا يعملون فقرر أن يجرب هذا الغريب.
كان الغريب نشيطا جدا رغم أن الشائعات طاردته بأنه كان ينقل إنتاج المزرعة من الفاكهة ويبيعه سرا فى الأسواق البعيدة. لكنه كان يعمل ليلا ونهارا دون ملل، وعند المغيب يقوم بحلب الأبقار ويحمل اللبن إلى عجوز تعيش جوار المزرعة لتقوم بصناعة السمن. يحب سمل أن يستمع لحكاياته، أهل القرية يقولون أنه كاذب وأنه لم يشاهد أيا من البلاد التى يحكى عنها حكايات أشبه بالأساطير وأن الطائرة التى زعم أنه ركبها فى رحلة لأداء العمرة قبل سنوات لم يرها ولا حتى طائرة فى الجو.
يشعل الطيب سيجارته فى فترات الاستراحة أثناء العمل ويرشف رشفة طويلة من كوب الشاى الأحمر ويقول:
أهل هذه القرية متخلفون، إن كنت تريد أن تتعلم وترى الدنيا عليك بالسفر إلى العاصمة.
كان يتحسر على حياته فى هذه القرية النائية بعد أن سافر ورأى العالم وذاق نعيم الحياة. يقول: لولا الحظ السيئ ما كان لى أن أحضر لهذا المكان القاحل، لقد رأيت بلادا تشتهى أن ترى التراب فيها. الأرض تلمع مثل المرآة. يمكنك أن تضع الأكل عليها ولا يتسخ، نساء تستحى أن تنظر إليهن، وفى آخر أيام العمر وبدلا من أن تخلد للراحة تجد نفسك تعيش مع أناس لا يميزون بين الإنسان والحمار!
يقاطعه سمل: هل صحيح أنك سافرت إلى أوربا؟

يبصق السعوط من فمه، ويقول: نعم. يتغير صوته: كنا نعمل مع أحد أمراء الخليج.
يقاطعه سمل: ما نوع العمل الذى كنت تؤديه؟
تنحنح الطيب ونظر حواليه كمن سيفشى سرا وقال محذرا: لا تخبرهم بما سأحكيه لك، الناس هنا يملؤهم الحسد، لا أدرى لماذا تضيع وقتك فى كتابة الرسائل لهم؟ ثم فكر وقال: مؤكد إن رسائلهم كلها طلبات، لا سلام ولا أشواق، كأنما ما بينهم وبين المسافرين هو فقط أرسلوا لنا. حين تطلب من شخص ما شيئا يجب أن تفعل ذلك بأدب وعلى استحياء، تشعره أنك لولا الحوجة ما كنت لتطلب منه، لكنهم هنا يصدرون أوامر كأنهم يطلبون استرجاع حقوق لهم. وما الذى يطلبونه: أرسل لى جهاز راديو، أرسل لى ساعة! كأنهم موظفون فى أحد البنوك، تجد أحدهم يضع الساعة فى معصمه وإن سألته كم الساعة الآن ينظر إلى ظل الجدار ويقول لك: الساعة تقريبا حوالى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر!
الغاية، كان يستمتع باستعمال كلمة الغاية هذه كلما سرح به الكلام بعيدا عن موضوعه الرئيسى تمهيدا ليعود لموضوعه الأساسى، وحين يقولها يكتسى وجهه وقارا يليق بكلمة هامة.
الغاية قال: كنا نحلب النياق صباحا ونحمل الحليب طازجا ليشرب منه الأمير، هؤلاء الناس يتمتعون بصحة جيدة بسبب حليب النياق الطازج، ربما بسبب ذلك بدلا من حضرة الأمير يخاطبهم الناس بعبارة طويل العمر،
الغاية: كان الأمير يريد السفر إلى ذلك البلد الأوربى المشهور بالنظافة والجمال، توقف قليلا محاولا تذكر الاسم ثم قال: بلد تشتهر بصناعة الساعات، سكانها مشهورون أيضا بالانضباط، مثل الساعات التى يصنعونها، يأكلون، ينامون، يستيقظون، يذهبون للعمل ويعودون للبيت، كل ذلك فى مواعيد محددة لا تتغير، حتى نومهم مع أزواجهم، كل شىء محدد بمواعيد دقيقة. توقف قليلا ثم أشار للقرية النائمة فى خمول الضحى وقال: ليس مثل هؤلاء الذين يضاجعون النساء مثل البهائم ليلا ونهارا حتى امتلأت القرية بالأطفال الذين ينشأون دون رعاية كافية، وحين تقول لأحدهم يجب أن تتوقف عن الإنجاب بسبب صعوبة أوضاعه الاقتصادية يقول لك: لا مشكلة، من سيولد، يولد معه رزقه أيضا!
الغاية: نقلونا فى طائرة خاصة بها ناقتان، بالطبع حضر الأمير فى طائرة أخرى، وأوضح: لا يمكن أن يسافر الأمير مع النياق والعلف!
تركوا طائرة النياق على جانب فى المطار، كنا نحضر كل صباح طوال الفترة التى قضيناها هناك لنحلب النياق ونحمل الحليب دافئا مليئا بالرغوة للأمير.

توقف كمن يستجمع أنفاسه ورمق أشجار النخيل من حوله بنظرة ساهمة كأنه يقرأ فيها ذكريات ماض بعيد، ثم قرب سيجارة (القمشة) التى صنعها متمهلا من فمه ليلصقها بلعابه ومد يده آليا باتجاه كوب الشاى وقال:
بلاد غاية فى النظافة والجمال لدرجة أنك تمشى فى الأرض حذرا خوف أن تخرّب لهم نظامهم بالمشى الأخرق..
وهل بقيتم هناك لفترة طويلة؟
أسبوع واحد، كان مفروضا أن نبقى لمدة شهر لكن الأمير استدعى للعودة لبعض المشاكل هناك، كان الأمير يحترمنى جدا ويحب سماع حكاياتى وقصص مغامراتى الكثيرة، لقد سافرت كثيرا فى بلادنا وكنت أسافر أحيانا لمجرد الرغبة فى رؤية بلاد جديدة لذلك أحفظ كثيرا من القصص، ذات مرة عدت إلى الوطن فى زيارة قصيرة لأزور أمى، سرقنى الوقت وكانت والدتى تصر على تزويجى قبل عودتى خوفا أن يطول غيابى، اختيار زوجة لشخص ابتعد عن وطنه لسنوات أمر صعب، لم يبق إلا أن نفعل مثلما فعل شخص اغترب لسنوات خارج الوطن وحين عاد كان الناس كلهم مشغولين فلم يعرف كيف يختار شريكة حياته، وفى النهاية اصطحبه أحد اقربائه وكان يعمل معلما فى مدرسة للبنات وجعله يستعرض معه طابور الصباح لاختيار زوجة من بين الطالبات. الحقيقة أننا انشغلنا أيضا بالشراب وكانت والدتى تسرع فى إحضار بعض الفتيات من جيراننا صباحا كل يوم قبل أن تبدأ حفلة الشراب، حتى لا أختار واحدة وأنا غير واع وتتحمل هى العواقب فيما بعد، كانت والدتى تستدعى الفتيات بحجة رغبتها أن يساعدنها بسبب كثرة الزوار الذين يحضرون للسلام على، بعد الاستعراض المتعجل كنا ننتحى جانبا تحت ظلال شجرة نيم وارفة ونبدأ الحياة. معى بعض أصدقاء الطفولة الذين اكتسبوا بسبب استقرارهم فى المنطقة خبرة فى تمييز الخمور الجيدة. شربنا حتى نفد الشراب فى العالم كله، أصبحنا مثل صانعة الخمور التى سألها المفتش الإنجليزى متى ستتوقفين عن صناعة الخمور أيتها المرأة؟ بعد أن قبض عليها عدة مرات، ردت عليه: سأتوقف حين تنتهى أشجار النخيل من الدنيا!
ذات يوم استعدت بعض الوعى، شعرت كما لو أنه لم تعد هناك ولا شجرة نخيل واحدة باقية فى الدنيا، كانت الفتيات كلهن قد تم استعراضهن، وما حملته من مال كله انتهى، فى تلك اللحظة سألت عن تاريخ اليوم، فعرفت أن إذن الخروج قد انتهى منذ أكثر من شهر ولابد أن إقامتى هناك قد ألغيت.
الغاية: توكلت على الله وركبت الطائرة وسافرت، حين هبطت الطائرة احتجزنى رجال الشرطة، كان يفترض أن تتم إعادتى على نفس الطائرة التى أحضرتنى، لكن لأننى أعمل مع أحد الأمراء قام رجال الشرطة

بالاتصال به لسؤاله إن كان يرغب فى بقائى أو يجب إعادتى إلى بلادى، طلب منهم الأمير إحضارى مخفورا بعربة الشرطة، عرفت أن الأمور ستسوء وستتم إعادتى إلى وطنى، ولكن حين وصلنا تسلمنى الأمير وصرف رجال الشرطة. قال لى: عرفت نقودك كعادتك كلما سافرت ستكون قد نفدت ولن يكون معك ما يكفى لسيارة أجرة لذلك طلبت من الشرطة إحضارك!!

الغاية: هؤلاء الناس أهل كرم ومروءة، ما كان بودى ترك العمل معهم أبدا لكنها القسمة والنصيب. توقف قليلا ثم ضحك وقال: ليست مثل قسمة ونصيب قريبكم حاج النور الذى حين ضبطناه يسرق العلف من المزرعة وسألناه لم يفعل ذلك، قال إنها القسمة!!

الغاية: والدتى كانت مريضة جدا، اضطررت للاستئذان من الأمير، شرحت له الأمر، يجب أن أكون مع والدتى، أصبحت تتحرك بصعوبة وليس لها غيرى من يساعدها، وما فائدة السفر والاغتراب نفسه إن لم تبق بجانب والدك فى هذه الظروف. أكرمنى الأمير كثيرا وأعطانى أضعاف أجرى وطلب منى العودة إن تحسنت صحة والدتى، حكمة الله أن الوالدة لم تعمر طويلا بعد عودتى، فكرت فى العودة لكن عرفت من بعض من كنت أعمل معهم بوفاة الأمير، حزنت عليه وقررت عدم العودة، قلت لم يبق فى العمر الكثير فلا داعى للتغرب.

العمدة لم يكن يقيم فى القرية، كان يحضر من وقت لآخر من قرية أخرى يقيم فيها مع زوجته وأولاده. كان وكيله فى القرية العم تاج السر، كان رجلا طيبا لكنه لم يكن يحب الطيب، وكان يحاول البحث دائما عن حجة يطرده بها من البلدة.

وجدها فرصة سانحة مرة حين تشاجر معه لأن الطيب لم ينفذ تعليماته بنقل علف ربطات عيدان الذرة الجافة التى تخزن لتستخدم كعلف فى مواسم ندرة الحشائش، كان مفروضا أن يقوم الطيب بتجهيز مكان من فروع أشجار النيم توضع فوقها ربطات العلف حتى لا تهاجمها حشرات الأرضة. لكنه أهمل الأمر. حين عنفه العم تاج السر تجرأ الطيب للمرة الأولى وطلب منه ألا يأمره وأنه يعمل بمزاجه وليس بأوامره. قال له العم تاج السر:

أنا المسئول هنا.

شتمه الطيب: (كس أمك)

وجد العم تاج السر الشتيمة البذيئة فرصة لطرده من العمل، فقال له:

تذكر ما قلت جيدا لأننى سأشكوك للعمدة!

أعطاه الطيب حجة إضافية حين قال دون تردد: (كس أم العمدة نفسه!)!

لم يستطع العم تاج السر تحمل الإهانة، وغادر إلى بيته حين جاء العمدة بعد أيام ذهب إليه العم تاج السر سعيدا، سيقنعه هذه المرة بطرد الطيب، حسب أنه يحمل قولا فصلا لا تعقيب بعده، شرف العمدة نفسه أصبح مهددا.
لكن العمدة ضحك حين سمع بحكاية (كس أمه!) قال العم تاج السر:
(إن كان العمدة راضيا بكس أمه، فماذا يساوى كس أمى أنا!)
يقول العم تاج السر لسمل حين يمر بحماره فى طريقه إلى مزرعة العمدة:
لا تضيع وقتك فى سماع حكايات هذا الكاذب الدجال، أفضل لك أن تنتبه لدروسك!
لكن شيئا ما يجذبه إلى حكايات العم الطيب، يجد لها طعما خاصا، ترسخ فى ذاكرته لا كمجرد حكايات بل كوقائع لها امتداد فى قيظ أيام الدميرة، غناء القمرى المخلوط برائحة نوار شجر النيم، غناء الغرباء الراحلين فى حمارة القيظ، الزمن الراكد فى أمسيات الشتاء الباردة حين كانا يجلسان حول نار الخشب يشربان الشاى الأحمر الساخن الذى يغلب على طعمه رائحة الخشب المحروق.
فى النهاية ستثمر المؤامرات، قام العمدة بطرد العم الطيب تحت ضغط أهل القرية، بعد شهور طويلة تلقى سمل رسالة قصيرة منه يطمئنه على أحواله، يعمل فى فندق فى مدينة بورسودان، عاد إلى حياة المدينة التى كان يحلم بها، العيش الساخن والتسكع ليلا فى حوارى الميناء.
اختتم رسالته بعبارة ستظل راسخة فى ذاكرة سمل لسنوات، كلما أطلت صورة الطيب من بين خيوط النسيان، يظل يتذكره ويتذكر كلماته حتى بعد أن وقع أسيرا فى أيدى القوات الحكومية التى هاجمت المعسكر الصغير الذى كان هو وفصيله المتمرد قد تراجعوا إليه بعد عدة أيام من قتال شرس للاستيلاء على مدينة جوبا.
كانت عبارة الطيب التى لم ينسها:
الحمد لله الذى أخرجنا من الظلمات إلى النور!

فى يوم عيد الفطر كانت رائحة البخور ورائحة الكعك الذى سهرت فاطمة وسميرة ليلة العيد لعمله، لا تزال تملأ أرجاء البيت، بطلب من سعيدة قام سمل وبدر الدين مساء بالطواف بالمبخر الضخم الملىء بالفحم المشتعل كل غرف البيت لطرد الشياطين التى أطلق سراحها بنهاية شهر رمضان، انشغلت سعيدة بغسل الملابس، كانت تطبق بحزم فكرة أن وجود ملابس غير نظيفة يوم العيد فى البيت سيعنى أن صاحبها سيبقى غير نظيف طوال عام وحتى حلول العيد القادم. بينما قامت فاطمة وسميرة بنظافة البيت وتغيير أغطية الأسرّة، بعد أن قضيتا يومين تصلحان فى فناء البيت بمساعدة سمل وبدر الدين اللذين نقلا الرمل الأحمر إلى الفناء.

دهم رجال الشرطة البيت فجأة، لم يعرف أحد من أين جاءوا، لكنهم ملأوا البيت فجأة، سادت حالة من الرعب والفوضى فى المكان، بعد قليل كان أهل البيت قد تجمعوا تحت شجرة النيم فى الفناء فيما رجال الشرطة ينقبون عن شىء مجهول فى البيت. دمروا كل شىء، حطموا أزيار الماء، بحثوا فى قواسيب الحبوب، استجوب أحدهم النساء، عن المرة الأخيرة التى رأوا فيها مصطفى.

بعد أن غادروا البيت، تركوا كل شىء مدمرا، أغطية الأسرة الجديدة أتلفت، أزيار الحبوب مفرغة أرضا، حتى أوانى المطبخ حطموها أثناء البحث الهمجى، دمروا أشجار الجهنمية وورد الحمير فى الفناء، شىء واحد طيب تركوه: مصطفى لا يزال على قيد الحياة!

لإزالة الدمار الذى ألحقه رجال الشرطة بالبيت، تعين العمل ليومين كاملين، حضر بعض الجيران للتهنئة بالعيد ولمعرفة أسباب دخول رجال الشرطة إلى البيت. وحضر أقارب يقطنون فى جزر نائية وجاء غرباء آخرون، بحثت سعيدة عن الغريب الذى يستخدم الماء لكشف وقائع الماضى عله يستطيع تحديد مكان مصطفى وساتى. لكنها لم تعثر عليه، وصفته بدقة لغرباء آخرين، تعرف عليه أحدهم وقال أنه لم يحضر هذه المرة معهم

لانشغاله بزواج ابنة كان يخفيها طوال سنوات فى الليالى المقمرة بسبب خوفها من ضوء القمر. أرسلت له سعيدة هدية مع الغريب: جوالاً صغيرًا به كمية من تمر القنديلة وشالا من قماش الدمور مشغولة أطرافه بخيوط الحرير. سميرة عادت مرة أخرى لترسل برقية عبر مكتب البريد فى القرية إلى نفس رجل الشرطة الذى أرسلت له البرقية الأولى، ولتوضح له أنهم علموا بما حدث، ذكرت له باختصار أنهم عرفوا بما حدث وأن الشرطة تبحث عنه وطلبت منه أن يفيدهم إن كان قد عرف شيئا عن ساتى المختفى منذ حوالى العام.

سميرة بعد سفر بدر مع الفرقة وذهاب سمل نهارا للعمل فى المزارع، استعادت قلقها على ساتى، وبدأت مرة أخرى ترى والدته فى أحلامها، رأتها فى المرة الأخيرة وهى تتفقد الفناء الذى امتلأ فجأة بعدد كبير من الأطفال كان بعضهم يعزفون على آلات موسيقية معلقة فى الهواء والبعض يلعبون بكرة حمراء كبيرة تشبه بالونة ضخمة، رأتها تبحث وسط الأطفال عن شىء ما، تقدمت منها سميرة ودعتها للدخول إلى البيت لأن أولادها لم يعودوا بعد من المدرسة، لكن المرأة تحولت فجأة إلى غجرية تجلس وسط كمية ضخمة من الأوانى تعرضها للبيع فيما اختفى الأطفال كلهم فجأة من المكان ولم تبق من آثارهم سوى الآلات الموسيقية المعلقة فى الهواء.

كان عامان قد مرا منذ اختفاء ساتى حين ظهرفجأة فى فناء البيت شاب طويل، نحيل الجسم، وسيم الوجه، كانت سعيدة أول من رآه، لم تعرفه فى البداية وحين اقترب منها انطلقت تزغرد وتجرى.

بقى عدة أيام لا يتحدث كثيرا، لم يتحدث أبدا عن تفاصيل رحلته الطويلة، شىء ما فى حزن عينيه أوحى لسميرة أن ثمة هاجسا مشتركا أضاع بسببه

الفتى قرابة العامين وأفنت هى عمرها من أجله، وأن صورة فتاة أسطورية ذائبة فى نهر بعيد كانت تتحكم فى الفتى من داخل الموت. ضاع وقت طويل، قالت سميرة، يجب أن تعود بعد نهاية عطلة الصيف إلى المدرسة وتحاول تعويض ما فاتك.

لكن الفتى كان ساهما، فكرت سميرة، هل لا يزال يحب شمس؟ استبعدت ذلك فى البداية فالرحلة التى تكبد مشاقها بحثا عن الملكة نورا، لابد أنها حددت مسارات قلبه إلى الأبد. لكن الحزن الكامن فى عينيه، مواسم الذكرى والأشواق المحفوظة فى الموت المتدفق من سراب عينيه، كانت تشى بعمق المأساة التى حملته للترحال خلف سراب الفتاة الشبيهة بالصورة القديمة التى ورثها عن والده.

حملته قدماه ذات صباح إلى المعبد، الصورة المحفوظة فى ذاكرته لم تكن سوى مرآة تعكس الصور المدفونة فى الموت. شمس مثلها مثل الملكة نورا كانت جسرا يعبر فوقه إلى عالم مواز فى دواخله، يشعر بوجوده وبالحياة التى تستعر فيه، رغم أنه يقبع مثل كوكب مظلم، لا توجد كوة واحدة للنفاذ إليه. ومثل ما حدث له حين رأى الملكة نورا، كان يشعر فى وجود شمس، بانفتاح الرموز فى دواخله وتدفقها إلى الواقع، راحة الانعتاق من عبء الصور التى تثقل روحه.

رأى العلامات التى لا تخطئها عين لحضور شمس عدة مرات وانتظارها له. وجد كومة من عصى جريد النخيل متناثرة فى المكان إضافة لآثار أقدام، كان اليوم يوم الخميس، لسوء الحظ سينتظر أسبوعا كاملا حتى يوم الأربعاء.

سمل عاد للتسكع فى المزرعة أثناء النهار بعد أن انتهى عمله فى تسميد الموالح، يذهب إلى المسيد أحيانا ليقرأ أو يكتب الرسائل للنسوة المسنات، منذ أن حل مكان ساتى فى كتابة الرسائل فى فترة غيابه. يحب الذهاب إلى المسيد مساء خاصة فى الليالى المقمرة، بعد أداء الصلاة يسترخى الجميع فوق حصائر السعف الطويلة بانتظار وجبة العشاء، يسبح كل واحد فى أحلامه القمرية، يرخون آذانهم لنشرة الساعة الثامنة مساء والتى تذاع فيها أسماء كل الموتى التى أذيعت أثناء النهار، يرخى الرجال المسنون آذانهم أملا فى سماع اسم أحد معارفهم لإقامة مراسيم عزاء تشكل برنامجا يقضى على رتابة الحياة فى الصيف.

يجتمع حول سمل خارج المسيد بعض الصبية وبعض الرجال المسنين حين يعزف على الطمبور، حين يكون بدر معه يغنيان سويا. بعد عودة ساتى استعاد مع فاطمة وبدر ليالى الغناء فى ضوء القمر، سميرة كانت لا تزال

تشعر بالقلق على مصطفى، لم يصلها رد على برقيتها الأخيرة، ظلت تفكر فيه طوال الوقت هل لا يزال مختبئا أم ألقوا القبض عليه؟
لم يبد ساتى رغبة فى العودة إلى المدرسة، قال، سأذهب للبحث عن مصطفى، وجدت سميرة الفكرة فى البداية جيدة، ربما يجد أخبارا عن كل الغائبين، لكنها اقترحت تأجيل السفر تحت ضغط الخوف من أن يزداد عدد المفقودين واحدا.
طلبت منه أن يفكر فى الأمر بعد أن يحصل على قسط من الراحة بعد سفره الطويل.
لم يبد ساتى متعجلا فلم يجادل سميرة كثيرا، فى يوم الأربعاء ترك سمل وبدر يصحبان سميرة إلى السوق ويمم صوب المعبد، كانت أصوات الناس فى السوق تصل إلى المكان خافتة مختلطة بصخب العصافير فوق أشجار الجميز والنيم المتناثرة فى المكان. رغم الحرارة الخانقة لكن ظلال الأشجار ورطوبة المزارع القريبة جعلت الجو لطيفا، فكر ساتى أن موسم الدميرة قد اقترب، ارتفاع النهر يجعل الأصوات تنتقل بسهولة، بإمكانه الاستماع لأصوات نوتية المراكب الشراعية الذين ينقلون الناس والمحاصيل الزراعية من الجزر أو من ضفة نهر النيل الأخرى. لابد أنه استغرق فى النوم ليستيقظ على المشهد الأكثر إثارة فى حياته منذ أن رأى الملكة نورا تختفى مع دوامة الرياح فى سوق الأربعاء.
كانت شمس واقفة هناك، مترددة، تلبس فستانا بسيطا وقد تناثرت خصلات شعرها التى تفوح منها رائحة الزيت، كانت تبدو مثل حورية من حوريات النهر قذف بها الموج إلى الشاطئ وضلت طريقها فى حمّارة القيظ.
أخبرها أنه يريد العودة إلى جوبا للبحث عن عمه وربما للعيش هناك، وأنه يتمنى أن تسافر معه، قالت ببساطة: أريد ذلك، لكن أخشى أن أبى لن يوافق، إنه يقول أنه لن يسمح لك بالزواج منى.
سأل ساتى: لماذا لن يسمح؟
ترددت شمس وقالت: يقول إن والدتك من الجنوب!
فى البداية قبل سنوات، لم يكن ساتى يفهم مثل هذه الإشارات، كانت أول مرة يسمع ذلك بوضوح حين جاء والد شمس إلى البيت وقال لسميرة حين تحدثت معه حول زواج ساتى وشمس: سمعت أن جدة الصبى من الجنوب!
الحق أنه لم يشعر بشىء من أقرانه لكنه لاحظ وجود حى بعيد فى أطراف القرية، عرف من سميرة أنه يقطن هناك عدد كبير من الناس الذين كانوا قبل سنوات طويلة رقيقا قبل إلغاء الرق. سمع مرة أن أحد البيوت الكبيرة فى القرية تنحدر جدتهم من أولئك الرقيق السابقين، وحين توفيت تلك

الجدة قبل سنوات حضر بعض أقاربها لتلقى العزاء مع أولادها لكن هؤلاء منعوهم من الوقوف معهم لتلقى العزاء.
فكرا فى الهرب، شمس رغم براءة وجهها لكنها كانت صاحبة إرادة، مضيا يخططان لمستقبلهما، ساتى يفكر فى إحياء تجارة جده، سيبنيان بيتا فى جوبا، لن نعيش طويلا فى بيت جدى، قال ساتى: ربما سيعيش فيه مصطفى، سنبنى بيتا جميلا. تقترح شمس أن يسافر هو أولا، يبحث عن عمه ويقابل أمه وشقيقته ويرتب أحواله هناك ثم يحضر لتسافر معه، قالت: ربما سيقتنع أبى حينذاك أو نستغل غيابه لأنه سيسافر لأداء الحج فى العام القادم كما يقول ونسافر، بدت فكرتها منطقية رغم أن ساتى شعر أنه سيكون صعبا عليه أن يسافر بدونها، وجودها معه هى التميمة التى تحميه من مطاردات صور الذاكرة التى تنغص عليه سكينة روحه.
امتدت لقاءاتهما كل أربعاء، لا شىء فى العالم يمكنه إيقافهما، ورغم أنهما كانا مطمئنين لانشغال العالم يوم الأربعاء، لكنهما لم يهملا الحذر من احتمال ظهور شخص ما خاصة أن المكان يقع على حافة مزارع الذرة، ذات يوم كانا يتناجيان حين سمعا صوت شخص ما كان يقوم بنصب فزاعة من الخرق البالية وهرول فجاة باتجاه المعبد المهجور بحثا عن خرق قماش، سمع العاشقان صوت الأقدام واختبآ بسرعة خلف ساتر من أغصان الشجر الجافة، طغت مشاعر الخوف من افتضاح أمرهما على متعة التصاق الجسدين الفتيين، ابتعد الرجل بعد أن مسح المكان بنظراته العجلى، بقيا هما فى وضعهما، تحسبا لاحتمال عودة الرجل أو لأنهما ارتاحا لوضع الاختباء، مد ساتى يده للمرة الأولى وتفحص الجسد الجميل، من ضفائر الشعر وحتى أصابع القدمين، حين وضع كفه على نهدى الفتاة أجفلت وهبت واقفة، انتبه الأثنان إلى وضعهما، ولاحظا فورا أنهما تأخرا كثيرا وأن السوق قد بدأ ينفض ولابد أن أهل القرية كانوا فى طريقهم إلى بيوتهم، ساعدها ساتى لتخرج بحذر، ثم انطلقت شمس أولا، انتظر ساتى قليلا قبل أن يتجه إلى القرية من طريق آخر، كان قلقا طوال الأيام التالية خوفا أن يكتشف والد شمس غيابها يوم السوق ويمنعها من الخروج، كما كان يشعر بذنب خفى بسبب تلامس جسديهما رغم أن الأمر جاء صدفة، لكنه شعر أن تلك الصدفة استمرت أكثر مما يجب وأنه استغلها أكثر مما يجب.
وجد نفسه معزولا من تيار الحياة حوله فى البيت، نفس أيام الملكة نورا، تلاحظ سميرة بقلق حالته، تفكر أنه ربما كان أفضل له أن يسافر رغم خوفها عليه من السفر، سألته إن كان قرر شيئا بخصوص السفر، فاجأه السؤال فلم يعرف كيف يرد، خلال الأيام الأخيرة انحصرت طموحات حياته

فى شمس، أضحت تمثل البديل الواقعى للملكة نورا التى تجول لشهور طويلة خلف رائحتها بحثا عن راحة لروحه فى رؤية مشهد الفتاة الذائبة فى موج النهر، كان متأكدا أن الفتاة التى حملتها العاصفة قد عادت إلى مستقرها الأبدى: مختلطة بتفاصيل وجه الموج وخيوط العتمة الزاحفة فوق وهج المغيب، وأن شمس أيضا كانت صورة أخرى للفتاة التى تؤرق روحه. بدت له شمس مثل جسر سيعبر فوقه إلى سلام روحه.

استمع إلى سميرة كأنه منوم مغناطيسيا: أفضل أن تسافر وتحاول إحياء تجارة جدك، يظهر أننا سنشهد أعواما صعبة قادمة، محصول النخيل الذى ورثناه عن جدك فى تراجع كل عام، يقولون إن الجفاف هو السبب، لم يعد نهر النيل يفيض كما كان فى الماضى، يجب أن تبحث عن مصطفى، يستطيع مساعدتك، يستطيع أن يعرفك بالتجار الذين كان يتعامل معهم جدك، أنت فى حاجة لهم لتعرف كيف تبدأ العمل. كان هو يفكر فى شمس، فى البيت الذى سيعيشان فيه فى جوبا، بحثه الذى لن يتوقف حتى يعثر على صورة الفتاة التى تؤرق حتى ذاكرة الموتى، مصير عمه نور الدين، هل صحيح ما قاله عمه مصطفى ذات مرة، أن الجيش أسر عمه نور الدين وقاموا بتعذيبه وإعدامه، قال عمه: لا يحتفظ الجيش بأى أسرى منذ اندلاع الحرب الأهلية.

لم يزد ساتى على القول: سأسافر بعد أسابيع.

يوم الأربعاء التالى جاءت شمس فى موعدها، يبدآن فى إعداد خطة حياتهما، يلونان العالم من خلال أحلامهما، سيقيمان حفل زواجهما فى بيتهما فى جوبا، سينجبان، أشول ومحمد عثمان وعبد الرحمن وعبد الدائم ونور الدين، رغم صغر سنه حين غادر جوبا للمرة الأخيرة، لكن ساتى كان يحكى عنها كأنه لم يفارقها، لا يلاحظ أن صور الفتاة التى ذابت عند أول لمسة من يد رجل، غير القابلة للنسيان، كانت تمثل جسرا بين ذاكرته وذاكرة الموتى، يصف أدق التفاصيل دون أن يلاحظ أنه لم ير تلك المشاهد أبدا، بل رآها أشخاص آخرون، يلاحظ فقط أنه أثناء رؤيته عبر الذاكرة تعبر صور أشخاص لا يذكر أنه رآهم من قبل، ثم يتوقف فجأة ليغنى بلهجة الدينكا:

إنا لنصلى لأم الالهة
من جمع سحرى هادئ
فى أرض كواك لياث جوك

لا يلاحظ أنه كان يغنى بلسان عمه نور الدين العابر مثل ذكرى لم توجد يوما ولا حتى فى الموت، ولا حتى فى أحد تلك الأزمنة الغابرة برفقة مغن صغير اشتهر بالاسم: دينق الكذّاب.

هذه المرة ليتقارب جسداهما استعاضا عن الشعور بالخطر بمواجهة مشتركة لسطوة الذكريات، ساتى يحكى التفاصيل فيما جسداهما يتقاربان، تحت وطاة الذكريات تمتد يده لتواصل من لحظة توقفا فى المرة الأخيرة، تعبث بالنهدين الطامحين، شىء ما فى ذاكرة الموتى يزيح حاجزا آخر لتتقارب الشفتان، مع أول تلامس لأسلاك شفتيهما، تنتفض شمس: لقد تأخرا مرة أخرى، يتراجع همس الذكريات أمام أصوات الباعة العائدين إلى قراهم، وأصوات العصافير المهاجرة التى بدأت فى الظهور فى حقول الذرة، ورائحة موسم الدميرة المتراجع أمام بدء هبوب رياح الشمال.

سمل وبدر عادا إلى المدرسة، بدر كان قد عاد من رحلته شمالا مع الفرقة المتجولة، عاد بروح جديدة وحكايات كثيرة، كانت المرة الأولى التى يزور فيها تلك المنطقة، بدأوا بزيارة قصر الدفوفة الأثرى القريب من مدينة كرمة النزل، واستمعوا لشرح موجز حول تاريخ المنطقة من البروفسور شارلز بونيه الذى كان ينقب مع بعثته الأثرية تلك المنطقة منذ عدة سنوات، ثم قدموا عرضا غنائيا ومسرحيا مفتوحا وسط المزارع المحيطة بمنطقة الدفوفة.
وحكى تفاصيل قصة مدرس مخبول أصر على مرافقتهم فى رحلتهم متأبطا طمبورا ضخما، وكان يتجول على ظهر حمار ويعلق حول السرج الذى يجلس عليه معدات الحب، كما كان يسمى مجموعة ضخمة من أوانى البلاستيك المليئة بخمر عرق التمر المحلى والمربوطة بإحكام حول سرج الحمار. كان محسنون محليون يتولون ملأها له كلما أفرغها بسبب الحب، وحين لا يكون هناك من يملأ مستودعات الحب كان يقوم بصناعة الخمر بنفسه مستخدما تمر الجاو الرخيص الذى يحصل عليه مجانا من بساتين النخيل أو يشتريه من الأسواق بأسعار زهيدة.

كان يؤلف أغنيات يومية يصف فيها المرأة التى يبحث عنها كشريكة لحياته، كما كان يقدم نفسه فى أغانيه كزوج مثالى، يشرب الخمر فقط كبديل للحب الغائب الذى كلفه كما كان يعلن شرابًا ما يساوى نهرا صغيرا من الخمر. ثم يختم أغنيته بنداء لكل من تلتمس فى نفسها الكفاءة وتنطبق عليها شروطه أن تتقدم فورا للقائه. كان المدرس قد هجر بيته منذ أشهر منذ تزوجت المرأة التى خطبها طوال أعوام من رجل آخر، وكان بعض الناس الذين يعرفونه يحاولون استفزازه بتذكيره إنه هو الذى أضاع عشيقته حين اكتفى بخطبتها ثم تفرغ لشراب الخمور. كان يدافع عن نفسه بأغنيات مرتجلة دون ضوابط موسيقية. يقول أنه لم يتسلم إنذارا بقرب نفاد الحب من عشيقته السابقة، ثم يتساءل محاولا إيجاد عذر أخير لها: ربما أرسلت إنذارا إلى العنوان الخطأ! ثم يقول إن الناس تغيرت ولم تعد قادرة على الصبر ونفى فى أغنياته أنه كان مشغولا بشرب الخمر، قائلا أن الناس أخطأت فهمه وأنه كان مشغولا بالاستعداد للزفاف. ضحك أحد الحضور وقال: لقد انتظرتك لأكثر من عشر سنوات، لو كنت تبنى قصرا لأصبح جاهزا! كيف تريدها أن تصبر أكثر من ذلك؟ رد على ذلك بأغنية أوضحت أن الحب الحقيقى يصمد أمام عاديات الزمن، وضرب ببعض الأمثلة المجهولة فى التاريخ، ملاحظا أن تاريخ الحب لم يكن سوى تاريخ للصبر على مكاره العالم.

كان الناس فى الأسواق البعيدة يتقاطرون لرؤية الفرقة والرجل الذى يبحث عن شريكة حياة بمناقصة غنائية معلنة وشحنة لا تنفد من وقود الحب. فى كل صباح كان يقوم بإضافة بعض الأخبار إلى أغنيته، بعض الأخبار التى يستمع إليها من راديو بى بى سى الذى يستمع إليه طوال الليل. وهكذا تبدأ أغنياته أحيانا بخبر انقلاب عسكرى أو حروب أهلية أو فيضانات وزلازل مدمرة، وأحيانا يضيف بعض الأخبار المحلية قبل أن يبدأ فى وصف شريكة حياته، وكان يساعد الفرقة فى عروضها المسرحية ويؤدى أية دور يعرض عليه بسبب مرض أحد أعضاء الفرقة أو شعوره بالتعب. وفى النهاية حين حان موعد سفر الفرقة لم يكن هو قد تقدم كثيرا فى بحثه عن شريكة حياة، لكنه لم ييأس، كان واثقا أنه سينجح فى النهاية وسيدعوهم إلى حفل زفافه قريبا، وفى الأيام الأخيرة بدأ فى تقديم تنازلات كبيرة فى أوصاف شريكة حياته، متخليا عن بعض الشروط الصعبة، ورغم ذلك لم يحقق تقدما، تركوه يواصل بحثه وفيما عادت الفرقة جنوبا واصل هو سفره شمالا.

مع نهاية موسم الدميرة وبدء هبوب الرياح الشمالية تناقص عدد الغرباء الذين يظهرون فى المضيفة، لم يبق سوى شيخ واحد تخلف من إحدى القوافل بسبب مرضه، وبسبب انتظاره لشخص التقاه يوم اختفاء الملكة

نورا وكان يبدو شخصا طموحا وعلى استعداد لعمل كل شيء ليصبح ثريا، وكان عائدا للتو من رحلة قام فيها بتهريب أعداد من الإبل وبيعها في أسواق الإبل جنوب مصر. وحين عرف أن الشيخ كان يمتلك حكمة ومعرفة بفنون السحر والتنجيم وخبرة فى معالجة المرضى ومعرفة بالنباتات الطبية، كما أسر له البعض أن الشيخ السائح يستطيع مساعدته فى مضاعفة ثروته، نقده مبلغا من المال حتى يتمكن هو من السفر لإحضار الزئبق الأحمر أو إن تعذر ذلك أن يستعيض عنه بنوع خاص من اللبان المستكى غير متوفر إلا فى صحارى شمال غرب أفريقيا وفى جبل شبوة فى اليمن. كان بإمكان العجوز السفر لأن الرجل تأخر كثيرا، لكنه لم يكن متعجلا ليعود إلى دياره بسبب نبوءة قديمة بأنه سيموت مجرد عودته إلى بيته بعد رحلة طويلة، بسبب تلك النبوءة لم يجرؤ طوال سنوات على القيام برحلة طويلة، منذ هجرته من غرب أفريقيا للسفر إلى الأراضى المقدسة لأداء الحج ثم زيارته فى طريق عودته ضريح السيد الحسن فى مدينة كسلا، أعجبته المدينة، رغم أن هيجان نهر القاش أغرق نصفها، كانت تشبه القرية التى ولد فيها بالقرب من مدينة كانو، فعاش فيها عدة سنوات وتزوج من امرأة تنتسب لقبيلة الفولانى، لكنه لم ينجب منها، ثم حمله حنينه للتجوال إلى مدينة سنار قبل أن يستقر لسنوات بالقرب من جبل مرة. وحين كان يضطر لمغادرة بيته للسفر بعيدا وكإجراء احتياطى لخداع الموت كان لا يعود مباشرة إلى بيته، فى إحدى المرات قام ببناء بيت آخر فى أطراف قرية زوجته الأولى فى سفوح جبل مرة وتزوج بامرأة أخرى لتعيش فى بيته الجديد، تاركا زوجته الأولى فى رعاية ابنه. وفيما بعد حين تأكد أن الموت لن يوجه له ضربة قاصمة هذه المرة، عاد إلى بيته الأول، ثم حاول التخلص من زوجته الثانية والتى لم توافق هواه بسبب محاولاتها لمنعه من الترحال الذى يعشقه، قام بتطليقها وإعادتها إلى أهلها. لكنها أثبتت أنها كانت أكثر وفاء منه، فقد عادت إلى البيت وعاشت فيه مع طفلتها الوحيدة، حين عاد إلى البيت فى زيارة عابرة ووجدها تعيش فيه قام مرة أخرى بطردها، وحتى يضمن عدم عودتها قام بهدم البيت وتسويته بالأرض، لكن المرأة الصابرة الوفية لبيتها، عادت وقامت وحدها ببناء البيت، كانت تترك طفلتها تسرح بجانبها فيما تبنى هى البيت قطعة قطعة، وفى المساء تأوى مع طفلتها إلى خيمة من الخرق نصبتها فى المكان حتى تفرغ من بناء بيتها. عاد بعد أشهر اكتمل فيها البيت، فى هذه المرة حين وجد البيت الجديد وعرف أنها بنته بنفسها استسلم، وعاش معها سنوات طويلة حتى دفعه الملل لتحدى خوفه من الموت.

كان بدر وسمل يجدان متعة فى حكايات الشيخ السائح، سمل كانت حكايات الرجل وصور الناس الذين التقاهم فى تسفاره تلامس برفق صورا وروائح يشعر بها تنبعث من عتمة ماض لا يذكر عنه شيئا. كان الرجل العجوز يختفى أحيانا لعدة أيام، يذهب ليتاجر فى الأسواق البعيدة، يسافر شمالا ليشارك فى قطع التمور، ويعالج المرضى بالحجامة، يعالج آلام الجسم المزمنة ويجبر الكسور، حين لا يكون هناك عمل يعود ليقيم فى المضيفة.
سمل وبدر كانا يتركان البيت فى أيام وجود الشيخ العجوز ويتناسيان حتى تنافسهما الخفى من أجل الفوز بقلب سميرة الصغيرة، يقضيان معظم وقتهما بعد العودة من المدرسة بجانبه يستمعان لحكاياته العجيبة، التى يرويها عن الناس فى القرية الصغيرة التى ولد فيها بالقرب من مدينة كانو، ثم عمله لفترة كمزارع ولفترة كجندى شارك مع الجيش الحكومى فى الحرب الأهلية، ثم كحارس فى منتجع بحيرة كينجى السياحى، ثم تعلمه على يد رجل عجوز استخدام الزئبق الأحمر فى عقد صفقات مع الجان لتنزيل الأموال. وسفره بعد ذلك إلى عدة بلدان، قصصه عن مدينة كسلا التى يعتبرها موطنه الثانى منذ زيارته لضريح السيد الحسن وبقائه عدة سنوات فى قرية تقع على سفح جبل توتيل.
سأل بدر عن الفائدة التى يجنيها الجان من الزئبق الأحمر، قال الشيخ: يأكل الجان الزئبق الأحمر لتجديد شبابه وقوته، الجان لا يموت مثل الإنسان لكنه يهرم وتقل قوته.
كانت حكاياته تسبب كوابيس للصبيين، ورغم ذلك يحبان الاستماع لقصصه، لقد تخيلا تلالا من المال مجرد أن يحصلا على هذا الزئبق الأحمر، ينتابهما الخوف فى الأمسيات، حتى إنهما لا يجرؤان على المشى لوحدهما فى الظلام، يتساءل بدر:
وكيف يمكننا الحصول على الزئبق الأحمر؟ لكن الشيخ لا يملك إجابة شافية، يقولون أنه موجود فى باطن بعض الجبال، أو بعض قبور الموتى من القدامى ممن كانوا يستخدمونه لتحنيط الجثث، يقولون أن الجبال تحيض مثل المرأة كل بضعة آلاف الأعوام والزئبق الأحمر هو حائض هذه الجبال، إنه يشبه الدم الفاسد.
تخيل بدر نفسه محظوظا يقف أمام جبل ما، وفجاة تتدفق الدماء من باطن الجبل، وتنفتح كنوز العالم فى وجهه، أو يعثر على مقبرة من مقابر القدماء الذين كانت جثثهم يتم تحنيطها باستخدام وسائل ومواد لا تزال مجهولة من بينها الزئبق الأحمر كما يقول الشيخ السائح.

ساتى كان يقضى بقية أيام الأسبوع لحين حلول يوم الأربعاء ساهما عن الحياة فى البيت، كل من رآه فى تلك الحال كان يظن أنه مشغول بالاستعداد للسفر، يجلس تحت شجرة النيم فى الفناء طوال اليوم، يناديه سمل وبدر حين يحملان الأكل إلى المضيفة، يحاول أن يبدو طبيعيا أمام الضيوف والغرباء، لا تجذبه حكايات الشيخ السائح لأنه لم يكن قادرا على تركيز حواسه لمتابعة ما حوله، سمل وبدر يفسران تبدل أحواله بأنه قلق على عمه مصطفى، فقد كان دائما أقرب الناس إليه.

يختفى يوم الأربعاء، فى المرة الأخيرة وصل متأخرا قليلا فوجدها سبقته، تضىء عتمة المكان بحضورها الباهر، حضورها يسبغ على كل شىء من حولها صدى يتحول إلى رذاذ ضوئى يتخلل الأشياء فتبدو كأنها تذوب فى حمى وهج غروب داخلى، إنها نفس الصورة بالمقلوب، صورة الفتاة الذائبة فى وهج المغيب، الفراق الوشيك يلغى كل المسافات بينهما: انتهى الزمن، اضطر ليحدد موعد السفر بعد ثلاثة أيام، بسبب ضغوط سميرة عليه ليسافر، سيسافر صباح السبت، سيستقل سيارة إلى مدينة كريمة ومن هناك القطار إلى الخرطوم، ثم يستقل قطارا إلى مدينة كوستى، ارتفعت أصوات الباعة العائدين من السوق حتى قبل أن يكملا وداعهما، لكن شمس تؤجل الوداع: غدا الخميس سيسافر والدها مع والدته لزيارة جدتها التى تقطن فى جزيرة فى نهر النيل تبعد بضع ساعات جنوبا، والتى عادت لتعيش فى بيتها بعد أن عاشت معهم عدة أعوام، سيتركان معها شقيقها الصغير وبإمكانها أن تحضر للقائه مساء الغد حتى لا تلفت الأنظار أثناء النهار فى يوم عادى، فكرا قليلا أين يلتقيان، ثم اقترح ساتى غابة صغيرة من أشجار المسكيت شرق القرية تقع على حافة جرف تحيط به كثبان الرمال وتغمره المياه فى أيام فيضان نهر النيل، وجدت شمس المكان مناسبا، كانت قد اعتادت على الذهاب إليه أحيانا هى وشقيقها للتزلج فوق كثبان الرمال أو لرعى الماعز فى فترة الشتاء التى يقل فيها غذاء البهائم.

سيكون القمر الشاهد الوحيد على ليلة وداعهما، ضوء بارد فوق الكثبان يتخلل أشباح المسكيت المتناثرة فى المدى، يتسرب الضوء الساحر إلى قلبيهما الفتيين، فتكتمل دائرة الحب، ينامان عاريين يغطيهما ثوب ضوء القمر، تحرسهما النجوم البعيدة. مارسا حبا فتيا، مشحونا بضوء النجوم، ورائحة عيدان القصب التى يحملها هواء الليل، حتى فاجأهما نور الفجر عاريين بعد أن انحسر ضوء القمر.

سافر ساتى، أوصته سميرة أن يبذل جهدا ليعثر على نور الدين ومصطفى، قالت له، احرص أن يكون البيت فى جوبا جاهزا لاستقباله، لم تقل هنا من

تقصد لكن ساتى فهم أنها تقصد نور الدين وليس مصطفى، طلبت منه ألا يخاطر بنفسه: نحن نحتاج إليك، أنت الرجل الذى نعتمد عليه الآن، مصير عميك لا يزال مجهولا، لمح ساتى دمعة تترقرق فوق عينيها: المرة الأولى التى تعترف أنها قد تفقد الأمل، الأمل الذى تعيش من أجله، طلبت منه أن يبلغ تحاياها لوالدته ويطلب منها أن تحضر لزيارتهم وتحضر معها شقيقته، قالت: بودى أن أسافر لزيارتها لكن لمن أترك البيت هنا؟

كانت سميرة تشعر بحزن خفى لسفره، شعرت بمجرد سفره أن خيطا أخيرا للأمل فى عودة خطيبها قد انقطع فجأة، تشعر أنها أيضا عبر ذاكرة الفتى التى تختزن آخر خيوط صور الفتاة التى ذابت عند أول لمسة من يد رجل، كانت ترى العالم الذى يبقى الأمل فى قلبها، دون أن تلاحظ أبدا أن ذاكرة الفتى كانت ترتع فيها أيضا ذكريات الموتى المدفونين فى النسيان. تستعيد خوفها وكوابيسها، فتلجأ سعيدة مرة أخرى لمحاولة علاجها عن طريق البخور والرقى. تذهب لزيارة شيخ يعيش فى أطراف القرية. أحضرت منه حجابا يقى من العين إضافة لقارورة بها سائل أسود لتشرب منه كل يوم جرعة صغيرة. فاطمة أيضا كانت تفتقد ساتى، وتفتقد الأيام التى كان يملأ فيها أمسيات الصيف بصوته العذب، سفره الأخير ترك جوا من الكآبة فى البيت أكثر حتى من غيابه الأول رغم أنه فى غيابه الأول كان مجهول المصير، لكن الإحساس بعودته الحتمية كان يملأ البيت، بعكس سفره الأخير. حكت لها نورا الأعرابية أثناء ثرثرتها وهى تعرض بضاعتها من الأوانى فى قيلولة ساكنة لا يقطع هدوءها سوى غناء طائر الهدهد الحزين يبشر بالعاصفة الوشيكة، أن بنت جيرانهم شمس تخوض مشاكل مع والدها الذى يصر على تزويجها بالقوة من ابن شقيقه. لكن الفتاة كانت ترفض بشدة ويتحدثون فى القرية أن الفتاة على علاقة بشاب ما كان يلتقى بها قبل فترة، وأن والدها يقوم بضربها حتى يجبرها على القبول.

سمل وبدر كانا يشعران ببعض الملل بعد سفر ساتى واختفاء الشيخ السائح الذى أخبرهما أنه ذاهب للبحث عن عمل شمالا، كان موسم قطع التمور قد حل، كما أنه كان قلقا بسبب طول فترة بقائه فى انتظار الرجل الذى سافر بحثا عن الزئبق الأحمر، فكر عدة مرات فى العودة لكنه كان يخشى أن يعتقد الرجل أنه سرقه خاصة وأنه وعد الرجل أنه سينتظره، فكر أن يترك له وصفا كيف يجده ويعود إلى قريته لكنه تذكر الموت، الذى لابد أنه نصب خيمته فى مدخل القرية فى انتظار عودته، كان جسمه قد نحل وتقوس ظهره قليلا وبدأت تفارقه قوة خارقة اشتهر بها فى الزمن الغابر، شعر أن مواجهة مع الموت لن تكون بعد الآن متكافئة، لم تبق لديه ولا حتى بعض القوة لخداع الموت مثلما فعل فى المرة الأولى، لكنه كان يعرف أنه يجب أن

يعود، لديه ابنة فى انتظاره، يريد أن يعيش بقية عمره بجانبها، لو تزوجت لن يسمح لزوجها بأخذها بعيدا عنه، يشعر بالحزن أحيانا أنه لا يذكر حتى كيف يبدو وجهها، منذ تركها طفلة صغيرة فى رعاية أمها، ترك لهم ثروة صغيرة من الإبل والضأن، لا يشعر بالقلق عليهم رغم أنه سمع أن المطر لم يعد يسقط بكميات وفيرة، وأن مساحات المراعى تتراجع، كان مطمئنا أن زوجته الثانية والدة الفتاة قوية لدرجة أن تتدبر أمورها حتى لو ساءت الأحوال كثيرا. من يبنى بيتا بيديه يستطيع مواجهة العالم، كان يقول مطمئنا نفسه، سمل لم يكن مهتما كثيرا بأفكار الشيخ الزئبقية بعكس بدر الذى راح يبنى أوهاما بالثراء بالاستفادة من مقدرات الشيخ السائح، رغم أن الحكايات أدخلت إلى قلبه بعض الخوف فكان لا يجرؤ فى الأيام الأولى على الخروج أو البقاء فى مكان ما لوحده ليلا، وحتى حين يخلدان للنوم ليلا هو وسمل فى جانب من الفناء، فى سريرين متجاورين، كان يضطر لكتم رغبته فى التبول حتى لا يضطر للابتعاد وحيدا فى الظلام، وإذا تحرك سمل للتبول كان يكتشف أن بدر يتبعه ويقف قريبا منه حتى يفرغ من التبول، اكتشفا أنهما الاثنين كانا يحبان سميرة الصغيرة، لكن الفتاة كانت صغيرة لدرجة أنها لم تتجاوب مع أى منهما وتعاملت معهما بعفوية وبراءة، كانت تجلس بجانبهما أحيانا فى حر القيلولة حين يعودون جميعا من المدرسة لتحكى لهما عن صديقاتها فى المدرسة وعن ما حدث طوال اليوم، وجهها جميل لكن جسمها كان نحيفا حتى إن بدر كان يحذرها مازحا من الخروج من البيت حين تهب رياح الشتاء أو صيفا حين تهب عواصف الهبوب خوفا من أن تحملها الرياح، وتستمع هى مندهشة لقصة الفتاة التى حملتها الرياح من سوق الأربعاء واختفى ساتى لمدة عامين بحثا عنها دون أن يعثر لها على أثر.

قبل أن يعرّفه زميل دراسة على عوالم كانت مجهولة بالنسبة له، اقتصرت معرفة سمل مع بداية مراهقته فقط على بعض ما كان يسمعه فى المدرسة، فتية صغار لديهم مغامرات جنسية تبدأ بالحمير وتنتهى أحيانا مع فتيات فى بيوت مهجورة كانت تبدو لسمل لغزا غير واضح، كان يعيد مراجعة كل الحكايات التى يسمعها فى المدرسة بعد أن يعود إلى البيت محاولا أن يكون منها صورة واضحة الملامح لقلق الرغبة الشديدة التى تنغص عليه حياته، بدر بدا منشغلا عن هموم سمل مهتما أكثر بأشياء أخرى، مهتما بالحصول على المال، كان يجمع ثمار الدوم والنبق من أشجار مجاورة للمزرعة ليبيعها فى اليوم التالى لزملائه، اقتنى جهاز راديو من ثمن الأشياء التى كان يبيعها، كان يحب سماع الأخبار خاصة من راديو لندن، كما كان يحلم دائما بالحصول على كاميرا للتصوير الفوتوغرافى، بدت له اكتشافا خطيرا

حين رآها للمرة الأولى مع زميل أرسلها له والده الذى يعمل خارج الوطن، قام بصناعة نموذج بدائى لكاميرا التصوير مستعينا بكتاب مادة العلوم، استخدم صندوقا صنعه من خشب صندوق الشاى، لكن فكرة الفلم لم تكن واضحة بالنسبة له،جرّب إستعمال شريط من القماش مطلى بطبقة خفيفة من خليط الشحم والجير، لكن التجربة التى استنفدت منه وقتا طويلا لم تنجح، فحاول ادخار مبلغ من المال واتفق مع تاجر فى سوق الأربعاء كان هو الذى باع له جهاز الراديو ليحضر له معلومات عن أسعار آلة التصوير من مدينة أمدرمان، كان يحب الأجهزة الكهربائية، وبسبب قلقه كلما رأى جهازا جديدا أقدم بعد فترة من شرائه لجهاز الراديو على استبداله بجهاز تسجيل للموسيقى، كان بالنسبة لهم فتحا مهما لأنه قام بتسجيل الأغانى التى تؤديها فاطمة حين يعزف لها سمل فى ليالى الصيف المقمرة.

سمل لم يبد اهتماما بالأجهزة الكهربائية بقدر معاناته بسبب الرغبة الغامضة التى تجتاحه للنساء خصوصا فى الأمسيات، أسر بذلك لصديق فى المدرسة، فتى مشاغب كان ينال الحصة الكبرى من الضرب أثناء الدروس بسبب حبه الدائم لمخالفة الأنظمة ومحاولته نصب فخاخ أحيانا فى الطريق الذى يسلكه بعض مدرسى المدرسة، شرح لسمل حلا سهلا، قال له أنه يقدم له دعوة مجانية لممارسة الحب وأنه سيدفع التكلفة هذه المرة، بدت الدعوة غامضة لسمل، كان يعتقد أن الحب يمارس من خلال الخطابات كما فهم من بعض أقرانه، وأن الإنسان حين يكبر يتزوج لإنجاب أطفال، لكنه لم يكن يصدق أنه يمكن شراء الحب أيضا، لم يعطه صديقه كثيرا من التفاصيل عما سيفعلان هناك لكنه أوضح له أن المكان سيعجبه كثيرا وسيجد علاجا لأدوائه كلها.

خرجا بعد انتهاء الدروس وركبا حمارين حملاهما خارج القرية، وبعد مسيرة حوالى ساعة توقفا أمام قرية صغيرة محاذية للشارع الرئيسى الذى تسلكه العربات شمالا وجنوبا، ثم قصدا بيتا يقف وحيدا تحيط به كثبان الرمال وأشجار سنط متناثرة فى المدى تبدو مثل سفن شراعية تبحر فى سراب الظهيرة.

استقبلتهما امرأة ضخمة الجثة وأدخلتهما بعد أن همس لها الصديق بشىء ما فى أذنها، فى الداخل قطعا الفناء الواسع إلى غرفة كبيرة مشيدة من الطين ومسقوفة بأعواد الشجر وسعف النخيل، كان هناك عدد من السكارى يجلسون بمحاذاة الجدار على حصير طويل من السعف، لم ينتبه لهما أى من السكارى، كان البعض يغنون بصوت خفيض، متعرج، دون التزام أية خطوط إيقاعية، وكان هناك شخص يمسك طنبورا وتتحرك يده فوق أوتاره آليا بينما كان هو مستسلما للنوم، جاذبا رأسه الذى كان يسقط على صدره

كل بضع دقائق إلى أعلى قبل أن يتركه مرة أخرى ليسقط فوق صدره، مشكلا مع طنبوره لوحة سيريالية لسعادة غير مكلفة. شربا كوبين من مشروب المريسة، كانت المرة الأولى لسمل التى يتذوق فيها خمرا، بدت له سيئة الطعم أشبه بطعم مشروب الحلو مر الذى لم يكن يحبه، بعد قليل أشار له الصديق ليذهب إلى غرفة فى نهاية الفناء، كانت غرفة عارية من أى أثاث سوى حصير من سعف شجر الدوم مفروش على الأرض جاءت فتاة صغيرة، شعر سمل فى البداية بالخجل من وجودها معه فى الغرفة ودون أن تتكلم معه وضعت إناء تحمله فى يدها ومسحت يدها من الزيت المعطر وأشارت له ليخلع ثيابه، قامت بمسح الزيت فى جسمه كله، ثم تنحت جانبا وخلعت الجلباب الذى تلبسه، رأى سمل عريها الغض، أول مرة يرى فيها امرأة عارية، تدفقت الدماء إلى وجهه شعر بصدمة منظر عرى الفتاة، كان الثوب يستر جسمها البالغ النحافة، شعر سمل بالخوف من منظر عظامها النافرة، تشجع ليقترب منها بعد قليل ويضع يده على صدرها الجاف، ثم التصق بجسمها بارتباك، لم يتحرك عضوه الجنسى بسبب القلق ورهبة الصدمة الأولى، لم تتمكن الفتاة من انتظاره طويلا، صاحبة البيت تنادى عليها طوال الوقت لخدمة زبائن آخرين، كان يشعر بالضيق والخجل حين خرجا من البيت عاجزا من رفع عينيه لمواجهة رفيقه. لحسن الحظ أن رفيقه لم يكن فى حالة تسمح له ولا حتى سؤاله كيف سارت مغامرته الأولى مع امرأة، كان قد دفع كل ما يملك ثمنا لدخول سمل مع الفتاة ولم يكن المبلغ المتبقى كافيا لشراء حب فاشترى به خمرا، كانت صاحبة البيت تعرفه فمنحته قدرا إضافيا من المريسة مجانا. فى الطريق لم ينبس صديقه بكلمة واحدة، ركب فوق الحمار بآخر طاقة تبقت له، لم ينتبه سمل المشغول بنفسه إلى الصديق النائم فوق الحمار، حتى شاهده فجأة ينهار أرضا من فوق حماره، قام سمل بحمله بصعوبة ووضعه فوق الحمار ثم ربطه من وسطه بحبل الحمار وثبّت طرف الحبل على جانبى السرج واستانفا السير مرة أخرى، حين وصل إلى بيت صديقه، كان الصديق قد انتبه قليلا، جلس أرضا وتقيأ قليلا، فشعر ببعض التحسن، ساعده سمل للدخول إلى البيت ولحسن الحظ كان الليل قد أرخى سدوله فلم يلحظهما أحد وهما يدخلان إلى الفناء وساعده ليضطجع فوق فراش فى الفناء قبل أن يغادر هو المكان مسرعا.

لم يستطع سمل النوم، يشعر بالنار تحرق قلبه، تقلب فى جمر فراشه حتى أشرقت الشمس. فى الصباح الباكر فعل شيئا للمرة الأولى، طلب من سميرة نقودا، لم تسأله سميرة لم يريد النقود، رغم أنها فوجئت بالطلب الغريب، لم يكن يطلب شيئا وأحيانا حين يعطيه شخص ما نقودا بمناسبة العيد أو

لشراء حلوى من احتفال المولد النبوى كانت سميرة تكتشف حين تغسلان الملابس هى وفاطمة شيئا مبتلا فى جيب جلباب سمل، لتجد أنه ترك النقود فى جيبه ولم يشتر بها شيئا.

بعكس بدر الذى كان ظمأه لشراء الأشياء يستعر كلما اشترى شيئا، بعد أن يقضى عدة أيام من القلق حتى يتمكن من جمع قيمة ما يريد شراءه، يغرق فى البداية فى فرح طفولى لبضعة أيام ولا يكف طوال الوقت عن فحص الجهاز الذى اشتراه وأحيانا يتسلل ليلا ليتأمل جهازه على ضوء المصباح أو يخلد للنوم والجهاز فى حضنه وفجأة يفقد اهتمامه به ويسعى لاستبداله أو بيعه، وهكذا شهد البيت أجهزة راديو سرعان ما اختفت لتحل محلها أشياء أخرى سرعان ما تختفى هى أيضا. وذات مرة اشترى بما ادخر من مال لقاء بيعه للنبق وثمار الدوم جهاز تسجيل من أحد سماسرة الماشية العابرين، كان قد بقى فى المضيفة يوما قبل أن يستأنف رحلته شمالا لشراء حمير يسافر لبيعها فى أسواق كردفان، كان جهاز التسجيل فى البيت مناسبة سعيدة لتسجيل أغنيات قمرية لفاطمة وسمل، أتاح لهما الجهاز تسجيل أغنيات من جهاز الراديو ليستمعوا لها فى أوقات أخرى، وكان ذلك مفيدا أيضا لفاطمة التى لم تكن تحفظ كلمات الأغانى، وكانت تستخدم كل مرة كلمات مختلفة لكنها مناسبة مع سياق ولحن الأغنية. سمل كان يحفظ الأغنيات التى سمعها فى جهاز الراديو من المرة الأولى، لكنه كان يحب العزف على آلة الطنبور، لكن بدر أخذ الجهاز بعد يومين واستبدله بساعة جيب أقنعه صاحبها أنها مطلية بالفضة، قام باستعمالها بضعة أيام قبل أن يستبدلها بآلة صغيرة تستغرق فى الضحك حين تشغيلها، ثم شعر بالملل من الآلة السعيدة دون سبب، فاستبدلها بماعز جاء يوما يسحبه من أذنه، ضحكت فاطمة مساء حين طلبت منه إحضار جهاز التسجيل فأخبرها أنه استبدله بماعز، قالت له إنها المرة الأولى التى يقتنى فيها شيئا لا يعمل بحجارة البطارية.

حين طلب سمل مالا لم تقل سميرة شيئا سوى: كم تريد، عرفت أنه يطلب المال لأمر هام جدا، وجد المنظر نفسه حين عاد إلى الأندابة أو سوق الحب كما يسميه صديقه، الشاب النائم يواصل عزفه على العود وعدد من السكارى متناثرون بحذاء الجدار، كان متعجلا، ورفض أن يشرب من المريسة، طلب أن يختلى بالفتاة، لم تلحظ المرأة التى طلبت منه الاتجاه لنفس الغرفة التى اختلى فيها بالفتاة فى الأمس، لم تلاحظ أنه يطلب فتاة معينة، أرسلت له فتاة أخرى ضخمة الجسم تفوح منها رائحة الزيوت المعطرة، لكنه فوجئ بوجودها وقال لها مرتبكا أنه يريد الفتاة الأخرى التى كانت معه بالأمس، فكرت الفتاة قليلا ثم قالت أنها مريضة ولم تحضر

اليوم، توسل لها سمل أن تصف له مكان بيت الفتاة، ترددت الفتاة قليلا ثم وصفت له البيت، غادر سمل الغرفة بسرعة كأنه كان خائفا أن تقدم الفتاة على ممارسة الحب معه بالقوة، لكن صاحبة البيت استوقفته وهو يهم بالخروج، إلى أين يا فتى؟

قال كاذبا: سأعود إلى البيت، نادته المرأة ليقترب ثم سألته هل تعرف كيف تعزف على هذا؟

انتبه سمل فى تلك اللحظة أن المرأة كانت تحمل طنبور الرجل النائم، أمسك به واختبر أوتاره وضبطها ثم بدأ فى العزف، تعطى موسيقاه الساحرة انطباعا بأن العالم يتحرك، كل شىء يمر عبر مرآة الزمن، استيقظ السكارى بمن فيهم صاحب الطنبور الذى انخرط فجأة فى البكاء أثناء نومه.

انخرط الجميع فى رقص هستيرى على أنغام الفتى السحرية، والصوت الذى كان يصعب تحديد مصدره:

يا من أسرت فؤادى ملكته فى اليدين

يا ملفت الأنظار يا ناير الخدين

شىء عجيب فى غرامك يا فريع ياسمين

توقف الفتى بعد قليل، ووضع الطنبور أرضا وغادر البيت، كانت بقية خيوط الألحان لا تزال تنسل فى فضاء المكان مختلطة برائحة المريسة، ورائحة النوار ورطوبة المزروعات يحملها هواء الصحراء الجاف. بعد قليل حين تقطعت بقية خيوط الألحان وتلاشت ببطء من المكان، تاركة خلفها وحشة الغياب وفراغ الياسمين، اكتشف السكارى فجأة أن الفتى لم يكن موجودا، تساقطوا فى مكانهم وواصلوا نومهم.

سمل اكتشف فى الخارج أنه لا يعرف اسم الفتاة، لم يشأ العودة مرة أخرى إلى الأنداية، دار حول القرية التى أشارت له الفتاة عليها ثم عاد إلى البيت يقتله القلق، تلاحظ سميرة أنه لا يأكل تقريبا، نفس الأعراض التى عانى منها ساتى حين غرق فى حب شمس، لمعرفتها بطبعه لم تشأ أن تسأله عن مشكلته، تعرف أنهم يميلون لكتمان خيباتهم، يدفنونها حية فى باطن صخر لامبالاة حياتهم اليومية، حين تقارن ساتى وسمل ببدر تكتشف الفرق الرهيب، هل يوقفان حياتهما مثل شجرة صبّار لتستمر الحياة، لا تبرز سوى أشواك فى مواجهة العالم، بينما حياتها الحقيقية فى الداخل، حياة تخصهما لوحدهما، يأكلان ما يجدانه أمامهما، يلبسان ما يجدان أمامهما من ثياب، حياة دون تعليق أو إشارة قد تسبر ما يدور فى أعماقهما، بينما بدر متفتح لكل شىء فى الحياة، يلهث يوميا من خلف قطار العالم الذى لا يتوقف، تراه فى كل لحظة يمارس حياته بضراوة، حتى وهو يتبول فى المرحاض تسمع أصوات الأشياء التى لا يكف عن سحبها إلى مداراته

الخاصة، يبدأ الأكل دائما بعبارة: ما هذا؟ نفس الأكل الذى يأكله كل يوم، يعيد كل يوم اكتشاف محاسنه ومساوئه، يتصرف من داخل أعماقه، يصنع عربة للعب من علب الصفيح يتركها أحيانا قبل أن يكملها ويبدأ فى صناعة واحدة من الخشب، يقضى زمنا طويلا فى نحت الخشب فى صبر حتى يخيل لمن رآه أن كل عالمه يتوقف على ما يقوم به، حين تبدأ معالم أشيائه فى الظهور، يهجرها فجأة ليغرق فى عالم الأجهزة الكهربائية ثم يعود بعد أيام يواصل نحت الخشب، يصنع ساقية أو نورجًا، حين وصلت الكاميرا بعد أن أكملت له سميرة المبلغ المطلوب،كان يوم وصولها يوما مشهودا، خلال لحظات قليلة كان قد التقط صورا للجميع حتى نفد الفيلم الوحيد المرفق معها، التقط صورة واحدة لسميرة الصغيرة، وهى تملأ جردلا بالماء من طرمبة الماء اليدوية، الصورة الوحيدة التى التقطها بقلبه. قام بطى الفيلم وإخراجه حسب التعليمات المرفقة، ثم وضع الكاميرا فى علبتها وحفظها فى حقيبة يحفظ فيها بعض مقتنياته، كان يعود إليها كل بضع دقائق، يتأملها، يشمها، رائحتها مميزة، ساحرة، تثير فى الروح قشعريرة معدنية، أرسل الفيلم بسرعة مع أحد غرباء المضيفة لتظهيره. جاءت الصور بعد أيام، سيحتاج لبعض الوقت والجهد لتعلم فن التصوير، بعض الصور التقطها فى الظل، أدت الخلفية ذات الضوء العالى إلى ظهور الوجوه مظلمة دون ملامح، مثل الأشباح، لم يراع أن يترك الشمس دائما خلفه والنتيجة احترقت بعض الصور وظهر بعضها دون أن يكون سهلا التعرف على ملامح الناس، ابتلعت الكاميرا كل وقته فلم يعد مكترثا بمن حوله، سمل القلق لا يستطيع أن يخلد للنوم إلا بصعوبة، يذهب كل يوم بعد المدرسة إلى بيت المريسة أملا أن يجد فتاته دون جدوى، فى النهاية سألته صاحبة البيت عن ما يريده بتلك الفتاة، قال ببساطة: أريد أن أتزوجها! ضحكت المرأة حتى اهتزت أردافها، عرضت عليه العمل معهم مقابل أن تساعده، يعزف ويغنى مساء، هز رأسه فى البداية ولم يقل شيئا، لكنه عاد بعد أيام من القلق، أرسلته المرأة إلى غرفة الحب وأرسلت خلفه فتاة أخرى، كانت تشبه فتاته المختفية، رفض حتى أن يجلس ليرى جسدها الممشوق الجميل، نهديها النابتين، وعينيها الحزينتين، استوقفته المرأة فى الخارج فيما فتاتها تلملم عريها المرفوض: من يوم دخولك معها وتلك الفتاة توقفت عن العمل، أرسلت لها عدة مرات ورفضت أن تحضر، ماذا تريدنى أن أفعل؟ هل أذهب وأحضرها بالعصا أم أرسل من يختطفها لك؟

حين رأت عناده، لم يتوقف وهى متشبثة فى جلبابه، استسلمت، تعال، سوف أذهب معك لزيارتهم مساء اليوم بشرط أن تأتى كل يوم مساء لتعزف وتغنى، غلّفت طلبها بتوسل أن يبقى، أن سوق الحب يكاد أن يقضى عليه

الكساد، العالم يغرق فى اليأس ولا سبيل لإعادته للرشد سوى إفقاده الوعى، بالمصائب التى تحدق به. فكر سمل، ووافق.
بقى سمل يعزف على الطنبور ويغنى طوال فترة العصر، حين غابت الشمس خرج بصحبة صاحبة البيت، قطعا الأرض الفضاء التى تفصل القرية عن البيت، من على البعد تتناثر شجيرات متفرقة فيما تغطى غابة صغيرة من أش منجار المسكيت جزءا من بحر الرمال الذى ترقد القرية بين حافته وحافة سماء رمادية مرصعة بالنجوم، كانت الفتاة تعيش وحيدة مع جدة ضريرة، طرقت صاحبة الإندایة الباب، فتحت لهما الفتاة الباب ودعتهما للدخول دون أن يبدو عليها أنها فوجئت بالزيارة، كانت جدتها ترقد على عنقريب فى وسط الفناء، لا يزال الجو دافئا رغم أن رياح الشتاء كانت قد بدأت تهب منذ أيام، لا شىء سوى مبنى صغير فى وسط الفناء من الطين، به غرفة ومطبخ، بجانب العجوز زير للماء، جلسا على عنقريب الفتاة المواجه لعنقريب جدتها، تحادثت معهما الجدة قليلا، قبل أن يرتفع صوت غطيطها.

سميرة ذهبت إلى مكتب البريد تريد إرسال برقية إلى ساتى حين فاجأها موظف البريد برسالة منه، كانت الرسالة مفاجأة سعيدة، أمسكت سميرة بالرسالة وطارت بها إلى البيت حتى انقطع نفسها من انفعال المفاجأة، بمجرد أن دخلت من باب المزرعة قامت بفض الرسالة، يهديهم تحياته،

تقفز سميرة فوق السطور تبحث عن اسم نور الدين، خيبة الأمل تكبح جماح انفعالها، فتبدأ فى قراءة الرسالة فى هدوء، وصل إلى جوبا، قام بزيارة والدته، قضى معهم وقتا ممتعا، عرف منها بوفاة جدتهم الكبرى التى كان يرغب بشدة فى زيارتها، لأنه يشتاق لمجرد رؤيتها، رغم أنه لم يرها أبدا، شوق مزروع فى دمه، وليسألها عن سر الفتاة الجميلة التى أصبحت حياته كلها تدور فى مد وجزر صورها الموروثة فى ذاكرته، لأنه تذكر أنه سمع من سميرة أو من شخص ما أن الجدة الكبرى والدة أشول هى التى أخذت الصبيين لزيارات غامضة تركت أثرا فى مجرى حياتهما. لكنه كتب أنه لا يزال يرغب فى زيارة بيت الجدة ربما يجد من يرشده لفض أسرار تلك الزيارة التى قضى فيها والده وعمه شهورا طويلة مع جدتهما، وحين عادا، كانا شخصين مختلفين، ذهبا صبيّين يافعين وعادا رجلين، حسم أحدهما خياراته بسرعة وتوجه فى طريق لا عودة فيه، وعانى الآخر من تشوش لازمه حتى اختفائه لأنه وكما حكت ألويل لساتى، أنها سمعت أن الفتى رأى موته أثناء تلك الزيارة على صفحة ماء النهر الذى تناثرت على مرآة وجهه صورة الفتاة الجميلة التى ذابت عند أول لمسة من يد رجل، ومنذ أن رأى تلك الصور عاش الفتى حياة مشوشة، لأن الصور لم تكن مستقرة فى الذاكرة، كانت تعشعش فى لا وعيه وتطفو نتف منها أحيانا إلى شاشة أحلامه الليلية.

أسروه قالت ألويل لساتي: كانوا يقتلون الأسرى، لا يجرؤ أحد على قول ذلك لسميرة، لكنها الحقيقة.

وهل عثروا على جثته؟

لم يعثروا عليها، ربما أحرقوه. كانوا يفعلون كل شىء لقمع التمرد. يحرقون القرى ويدمرون كل شىء فى طريقهم، جدته هى الوحيدة التى كانت تعرف، قالت إنه كان يزورها بانتظام بعد موته، تستيقظ فتجده جالسا إلى جوارها، تقول أن جلده تحول لونه واكتسب اللون الذهبى الذى كان يغطى جزءا من كفه بعد أن التصق فيها يوم حاول لمس الفتاة الذائبة فى غروب الشمس فوق صفحة المياه، حين تنظر إلى وجهه كانت ترى صور صفحة النهر التى انطبعت فى ذاكرته إلى الأبد، كان يحكى لها بالتفصيل كل ما مر به من أهوال من لحظة ذهابه إلى الغابة بعد مقتل أمه وحتى لحظة إعدامه الهمجى مع عشرات الأسرى الآخرين، يطرق بجانبها حزينا، يجد أمانا يفتقده حتى فى الموت، حين يتسرب أول شعاع لضوء الشمس كان يتبخر فجأة من أمامها، تمد هى يدها فى الفراغ فلا تمسك سوى حزمة خيوط ضوئية بلون الذهب سرعان ما تتسرب من يدها، يستمع الناس كل

صباح إلى نواحها، لا تتوقف من البكاء إلا حين تتجمع الأشعة الذهبية لتشكّل وجهه وجسمه ويستأنف حديثه معها.
تقرأ سميرة: لم أعرف بعد أخبارا عن العم نور الدين أو العم مصطفى، لكننى عرفت أنه كان مشاركا فى عملية استهدفت مطار المدينة وأنه كان هاربا. يتذكر قول أمه: إنهم يقتلون الأسرى، كل الأسرى، وتتوقف فى قلبه غصة ألم، ربما وجدوه وتمت تصفيته على الفور كما يفعلون. يقول لسميرة: سأرسل لك مجرد أن أعرف عنهم أخبارا.
ثم ينتقل ليحكى لها أنه لا يزال يحب شمس، وأنه كان يلتقيها بعيدا عن عيون الناس قبل سفره، وأنه يريد الزواج منها ويريدها أن تذهب إلى والدها وتحاول معه مجددا، وإن رفض سيضطر إلى وسائل أخرى. لم تفهم سميرة ماذا يعنى بوسائل أخرى، لكنها شعرت بالكارثة، كانت قد سمعت من فاطمة أن الفتاة يحاول والدها منذ أيام على إرغامها على الزواج من أحد أقربائه. لم تعرف كيف تتصرف، أشياء سمل وساتى حين تطفو إلى السطح كما اعتادت تكون قد وصلت أقصى مراحل الخطورة والجدية، قالت لا مناص، ستذهب لتحاول مع الرجل. استقبلتها والدة الفتاة، ودعتها لتجلس فى الصالة، صالة طويلة مبنية بالطوب الأحمر وعلى الحائط المطلى باللون الأصفر صور رجل وامرأة غير واضحة الملامح سوى منظر الشارب الضخم فى وجه الرجل لابد أنهما والدا صاحب البيت، حاولت أن تسترق السمع لتعرف إن كانت شمس موجودة فى البيت لكنها لم تسمع شيئا. أحضرت لها المرأة كوبا من شراب الكركدى ثم غادرت الصالة بسرعة. جاء الرجل بعد قليل، لم يمد يده لمصافحتها، ولم يجلس، لبث واقفا بعد أن حياها من على البعد ثم سألها عما تريد، ارتبكت قليلا، لم يترك لها الرجل فرصة لتلتقط أنفاسها، قالت مباشرة دون أن تدرى كيف جرؤت على التحدث فى حضور الرجل الصارم الوجه: أريد خطوبة شمس لابننا ساتى.
قال الرجل: وهل تقوم النساء الآن بذلك، ألا يوجد رجال فى بيتكم.
قالت سميرة بارتباك بعد أن فاجأتها فظاظة الرجل غير المحتملة: يوجد لدينا رجال، مصطفى ضابط فى الجيش غائب بسبب عمله.
قاطعها الرجل: ليس لدى بنات للزواج.
قالت سميرة: هل تزوجت شمس؟
قال الرجل: ستتزوج من ابن عمها خلال أيام.
لم يقل الرجل كلمة أخرى وغادر المكان، نظرت سميرة حولها، لا يوجد أى إنسان، تركت كوب الكركدى دون أن تمسه وغادرت المكان.
تسارعت الأحداث بعد ذلك، حكت لهم نورا الأعرابية أن الفتاة كانت قد هربت من البيت منذ أيام وأعلنت لهم أنها لن تتزوج إلا من الشخص الذى

تريد حتى لو اضطرت لإلقاء نفسها فى نهر النيل، ويقال أن الفتاة اعترفت أنها كانت تقابل شخصا ما، بعد أيام سمعوا أصوات بكاء، ثم تسرب الخبر كالصاعقة: شمس ماتت، سبب الوفاة كما قال أهلها حمى الملاريا، لكن الناس تناقلت أخبارا غامضة، أن الفتاة كانت حاملا من شخص ما وأن والدها حين انكشف الحمل دفع لأحد أقربائه مالا ليتزوجها لكن الفتاة رفضت وأعلنت أنها لن تتزوج غير الرجل الذى تريد.

عاشت سميرة والبيت كله حالة من الصدمة، لم تعرف سميرة ماذا تقول لساتى، كان فى انتظار رد منها، وماذا عن الشائعات التى تملأ القرية، هل صحيح أن الفتاة كانت حاملا منه؟ لم تمض سوى أيام قليلة تأكدت فيها شكوك سميرة، بعد انقضاء أيام العزاء على شمس وتفرق الناس، كانت سميرة وفاطمة فى البيت وسعيدة فى الفناء الخلفى تفرش محصول نبات الويكة أرضا ليجف، وسمل وبدر وسميرة الصغيرة فى المدرسة، حين دهم رجال متوحشون البيت فجأة ودمروا كل شىء فى طريقهم، لم يتعرضوا لسميرة أو فاطمة لكنهم بحثوا داخل البيت عن الصبيين، تعرفت سميرة فى أحدهم على والد شمس، قال لها الرجل من على البعد: لو عاد هذا الرقيق إلى هنا مرة أخرى فسوق أقتله بيدى. ثم قال لن نسمح لكم بالعيش وسطنا عودوا إلى بلادكم. كسروا باب مخزن الحبوب وأشعلوا فيه النيران، ثم حاولوا إشعال النار فى البيت أيضا لكن النار انطفأت بسبب الريح، غادروا المكان قبل أن يهرع عدد من أهل القرية جذبهم صوت صراخ سميرة وفاطمة، تمكنوا من إطفاء النار فى مخزن الحبوب بعد أن أتت على كل محصول القمح والفول المصرى والبلح، جاء رجال شرطة لمعاينة المكان وتدوين بلاغ بالحادثة، لم تشأ سميرة فى البداية أن تكون هناك إجراءات قانونية خوفا من تطور العداء مع جيرانهم، لكن ضابط الشرطة أصر على ذلك، بدءوا بمساعدة بعض أهل القرية فى ترميم المكان وإصلاح ما تم تحطيمه، لكنهم لاحظوا أنهم كانوا فى القرية شبه معزولين من معظم الناس، لم يزرهم سوى بعض أقربائهم ممن يقطنون فى قرى أخرى.

سميرة بذلت جهدا للحفاظ على سير الحياة فى البيت كما فى السابق بنفس همتها وصبرها أيام موت أشول واختفاء نور الدين، وصلت رسالة أخرى من ساتى يسأل سميرة عن نتيجة اتصالها بوالد شمس، لم يذكر شيئا فى رسالته عن عمه مصطفى أو عمه نور الدين، تردد كثيرا قبل أن يأتى على ذكرهما خوفا من أن تفسر سميرة أية إشارة منه كحدث مؤكد، كان قد التقى ضابط الشرطة الذى احتفظت سميرة بمراسلات متقطعة معه، حكى له أن هناك معلومات أن معظم الفارين بعد محاولة اقتحام المطار قد قتلوا، لكن لا أحد يستطيع تأكيد إن كان هناك من هو على قيد الحياة. بدلا من أن تخبره

هى أيضا بأى شىء بما حدث فى القرية، ردت عليه سميرة برسالة طويلة تطلب منه نسيان الفتاة، شرحت له أن والدها شخص مستبد للغاية لا يمكن التفاهم معه، فكرت أن تكتب له أن الفتاة تزوجت لكنها خافت أن يكون للخبر وقع مساو لوقع خبر موتها، اهتدت لفكرة أن تنقل له الأخبار السيئة بالتقسيط، أن تحاول دفنها فى مقبرة شعوره بالإهانة: أن يكرهها. قالت أنها سمعت أن والدها يرغب فى تزويجها من أحد أقربائها، وأنها سمعت أن الفتاة وافقت وأن الناس شاهدوهم يوم سوق الأربعاء وهما يشتريان سويا بعض مستلزمات زفافهما.

سميرة كانت فى حاجة لتفيق من هول الصدمات الأخيرة بصدمة جديدة، حين واجهت ذات مساء الفتى الذى حل بسرعة عجيبة محل شقيقه الغائب، نفس طريقة أعمامه، اقترب منها للمرة الأولى منذ مولده، مسافة كانت كافية لتشم رائحة خمر المريسة التى تفوح منه، لتنتبه فى تلك اللحظة للمرة الأولى لغيابه المسائى المنتظم كل يوم، لم تفهم لم شعرت للمرة الأولى فى حياتها بالخوف عليه، هل بدأت صور الحلم القديم تعذبه هو أيضا، من واقع خبرتها رأت آثارها فى العيون وفى الوجه، مثل ألم ضرس يستعصى حتى على الخلع، وجهين لعملة واحدة يتكشف فقط وجهها الخفى حين ينكشف غطاء العملة: الحب.

لم تره هو، لم تسمعه هو حين ألقى بقنبلة الكلمتين، سمعت عبد الدائم: أريد أن أتزوج ألويل!

سمعت ساتي: أريد أن أتزوج من شمس.

ليس حبا انتهت وهى تلصق ظرف رسالة ساتى بلعابها: بل حفرا شاقا فى مرآة الذاكرة بحثا عن وهم مدفون فيها يصور شبح فتاة جميلة ذابت عند أول لمسة من يد رجل، هناك فى المدى الذى لا زال يعبق بأغنيات الساعة الواحدة بعد توقف المطر، حيث الجميع يغنون لأم الآلهة، فى أرض كواك لياث جوك.

أول ما عرفته سميرة عن الفتاة التى يريد سمل الزواج منها، أنها تنتمى لأسلاف من الرقيق السابقين، وأنها تقيم مع جدتها العمياء فى قرية صغيرة معظم سكانها ينتمون لنفس الأسلاف، وأنها كانت تعمل فى بيت للمريسة، تخدم الزبائن وتقدم لهم الخمور البلدية وتشارك فى الغناء لهم، وقد يمارس معها بعض الزبائن العابرين الحب. أسرت لها بذلك نورا الأعرابية، وهى تفرش بضاعتها من الأوانى فى صالة البيت، فى خمول قيظ الساعة الثالثة بعد الظهر، لم تمنعها عجلتها للحاق بأكبر عدد من الزبائن حيث يبدأ موسمها بعد نهاية موسم الشتاء وانتعاش أحوال الناس بعد جنى المحاصيل الشتوية.

أليسوا أقرباءنا إذن، قال سمل حين واجهته سميرة. الرقيق السابقون ألم يكن يتم اصطيادهم من بلادنا؟ قالت سميرة مصححة: هذه بلادك أيضا، أوضحت أنها لم تقصد ذلك، بل قصدت عملها فى بيت المريسة.

قال سمل: هل تموت من الجوع؟ لا عمل لهم سوى ذلك.

قالت سميرة: ألم تذهب لسوق الأربعاء، كثير من النسوة من الفقراء، ومعظمهن من أهل هذه القرية ولسن من أحفاد الرقيق السابقين، يبعن الخضروات والفواكه التى يزرعنها بأنفسهن ويبعن حصائر السعف التى يصنعنها بأنفسهن.

قال سمل: لقد أجبت بنفسك، هؤلاء لديهم أرض يزرعونها، حتى وإن كانت مساحات صغيرة ويبيعون إنتاجها فى السوق. ألم يكفك ما فعله هؤلاء بنا، كادوا يحرقوننا أحياء.

نحن ننتمى لهذه الأرض كلها قالت سميرة، شمالا وجنوبا، جذورنا واحدة.

أنهى سمل النقاش:

سأتزوج من شيرا.

كيف ستعيش قالت سميرة، من يتزوجون يجب أن يعملوا، فيم العجلة؟ أنت لا تزال صغيرا، يجب أن تكمل دراستك.

لا تعرف أنه كان يعمل بالفعل، مغنيا فى بيت المريسة.

قال: سأعمل!

تعرف سميرة عنادهم. قال: يمكننى أن أقيم معهم فى بيتهم إن كان الأمر محرجا لكم.

قالت سميرة بحزم: لا، خشيت من ضياعه منهم، تعرف أنهم لا يلتفتون للوراء أبدا، قالت بإصرار: ستعيش معنا، بزوجة أو بدون زوجة، ستعيش معنا هذا بيتك ومن حقك أن تعيش فيه مع من تريد.
كان الشيخ السائح قد عاد إلى المزرعة بعد أن غاب فى رحلة طويلة شمالا شارك فيها فى موسم قطع التمور، ثم سافر لزيارة مدينة وادى حلفا، أملا فى أن يعثر صدفة على الرجل الحالم بثراء سريع والذى دفع له مبلغا من المال طالبا منه أن ينتظره لحين عودته بالزئبق الأحمر، كان يبحث عنه فى الأسواق البعيدة وفى كل تجمعات الأفراح والموت التى صادفها فى طريقه، متجاهلا شعورا خفيا بالسعادة لأن تأخر وصول الرجل سيعنى تأجيل رحلته النهائية التى سيواجه فى نهايتها الموت.
يفكر فى استدعاء ابنته ليعيشا معا فى هذه البلدة الوادعة النائمة مثل طفل فى حضن النهر العجوز، ليحرم الموت بالتالى من توجيه ضربته له فى بيته البعيد على حافة صحراء لا نهائية، لا مغيث فيها من قدر أو نسيان. رغم تقدمه فى السن وفقدانه تدريجيا لنبض بوصلة فتحت له فى الماضى دروبا للرزق وحفظته من أهوال كثيرة، وهدته دائما لاقتفاء الطريق الصحيح، رغم أن الصحراء حين تهب فيها عواصف الرمال تتعطل فيها كل الحواس وتختفى حتى نجوم الليل التى تهدى الضائعين للطريق، لكنه لم يعدم مكرا يجعله يفكر فى طرق أخرى لإرباك ذاكرة الموت، يستعيض عن بوصلته الضائعة بخبرة شيخ، كان مجيدا فى اقتفاء وتمييز الأثر، يكاد من آثار الأقدام على الأرض أن يقرأ أفكار صاحبها، يميز الناقة الحامل والجمل الأحول، يتعرف إلى النباتات البرية التى تشفى الأمراض والجروح، يقرأ مسارات حياته حتى فى وجوه من يلتقيهم فى الطريق، كل شىء يمثل شيئا، لم يخلق شىء عبثا فى العالم، لكل شىء دلالاته.
يفسر الأحلام ويضرب الرمل، لم يفعل ذلك فى المزرعة إلا مرة واحدة، حين طلبت منه سعيدة أن يحدد لها مكان الغائب الذى يحتل قلب المرأة التى تسخّر كل وجودها وكل شىء من حولها لتفرض واقعة انتظارها كحقيقة لا تقبل الموت.
رآه مكسوا بماء ذهب الغروب، هائما على وجهه فى أمسيات السافنا، مشرعا أنفه باتجاه السماء كمن يستنشق عطر النجوم، ليس بحثا عن وجه القمر بل لتشتيت سحابات الشوق إلى الحياة التى تؤرقه، عرف من نبض خطواته التائهة أنه لم يكن منتميا لهذا العالم، بل كان عاشقا تحمله طاقة حبه ليخترق جدران عوالمه الأخرى إلى العالم الذى ضاعت فيه آثار حبه.
رأى الصور تعود بحركة بطيئة إلى لحظة وقوعه فى أسر جنود لا يرحمون، أوقفته سعيدة فى تلك اللحظة تحديدا، وقبل تنفيذ حكم الإعدام،

حين جمعت فجأة ودون أن تقول شيئا قطع الودع المتناثرة أرضا لتصور مشهد الموت. طلبت منه أن يعيد الودعات إلى حقيبته، ثم بعد أن تأكدت أن أحدا لم ير شيئا، أمرته ألا يعود إلى إخراج قطع الودع تلك من حقيبته ما دام يقيم فى هذا البيت. لم يفعل ذلك فحسب بل إنه لم يخرج قطع الودع تلك مرة أخرى أبدا، رغم أن قراءة المستقبل كانت تدر عليه بعض الدخل أثناء تسفاره. يعرف أنه ارتاح لفعل ذلك أيضا، حتى يجنّب نفسه رؤية المشهد الذى يقض مضجعه: مشهد موته.

فى نفس يوم عودة الشيخ، نقلت عربة كارو يجرها حمار، عروس سمل مع متاعها القليل ومع جدتها. كانت الفتاة الصغيرة بالغة الجمال، حين رأتها سميرة، رأت فيها صورة ألويل، مع سحر غريب لم تفهمه، رغم أنها لم تفهم أيضا لم قفزت إلى ذاكرتها فى نفس اللحظة صورة الملكة نورا وصورة شمس. وصلت رسالة من ساتى فى نفس ذلك اليوم، يقول أنه لم يصدق أن تقبل شمس بالزواج من شخص آخر غيره، يقول أنه يشعر أن هناك شىء غير طبيعى قد حدث بعد سفره، قال أنه يعانى منذ أيام شعورا غريبا، أن صورة شمس التى تلازمه طوال الوقت، قد تلاشت فجأة، رغم أنها كانت تلازمه مثل ظله، وختم رسالته بسؤاله: هل أنت متأكدة أنها لا تزال على قيد الحياة؟

حين قرأت سميرة الرسالة، بكت فى صمت، قالت: لقد عرف كل شىء، لابد أن رسالتى إليه فضحت كل ما كنت أحاول إخفاءه.

شعرت سميرة بمشاكلها القديمة تعود إليها، خوفها من الموت، تفسيرها لكل ما يحدث من حولها، كل تغيير فى طبيعة الأشياء، أنه إشارة لموتها القادم، حتى مظاهرة وصول سمل وأسرته الجديدة بدت لها كمؤامرة تحت غطاء الفرح، موت يتقدم تحت لافتات مختلفة، مختبئا فى مشيئة القلوب التى تستهدى فى طريقها بصور الموتى المدفونين فى النسيان.

لم يمنعها كل ذلك من المشاركة فى الترحيب بالقادمين الجدد، وجه الفتاة يجعلها تتناسى جزءا من الحزن الذى تشعر بمرارته قد وصلت إلى لسانها، تخصص لهم جزءا من البيت، كانت قد سهرت خلال أيام مع فاطمة وسعيدة لإعداده.

فصل جديد

قال الشيخ السائح بعد أن أدى صلاة العشاء وتناول عشاء من حليب الماعز وخبز السناسن مع بدر وثلاثة من الغرباء: سيحضر الرجل أخيرا.

قال بدر: وكيف عرفت أنه سيعود؟
ترك يده تلعب فى حبات المسبحة، منذ الصباح الباكر من إشارات جسده المتواصلة، يعرف أنه سيلتقى شخصا لم يره منذ زمان طويل، قال وبنبرة من يجيب على السؤال الذى وجهه بدر الدين: لقد تعب كثيرا، لكنه نجح فى الحصول عليه، إنه إنسان قوى يملك الشجاعة والتصميم على بلوغ الهدف مهما كان بعيدا.
- هل عثر على الزئبق الأحمر؟.
قال الشيخ السائح وهو يسحب غطاءه الخفيف ليدفن غبار النجوم المتساقط فوق وجهه: أفضل أن نرتاح، ينتظرنا عمل كثير فى الغد.
فى اليوم التالى حين عاد بدر من المدرسة وجد رجلا غريبا فى المضيفة، حين حاول دخول غرفة الضيوف بحثا عن الشيخ السائح منعه الرجل الغريب من الدخول قبل أن يشرح له أن الشيخ السائح يمارس عملا فى الداخل. كان الرجل الغريب يجلس أرضا فى صالة المضيفة، وحوله أعداد كبيرة من جوالات الخيش، دفع الفضول بدر ليسأله عنها، فرد الرجل ببساطة:
- سنضع فيها النقود!
لم يظهر الشيخ السائح طوال اليوم، بقى بدر الدين فى انتظاره، كان الرجل الغريب مشغولا بحسابات كثيرة يجريها أحيانا على الأرض وأحيانا على الورق. يوزع ثروته الطائلة على أشخاص وهميين، أبناء سينجبهم، وينجز مشروعات ضخمة، فى مجالات الصناعة والزراعة المطرية، يزرع القطن والسمسم والذرة وزهرة عباد الشمس. يوضح ضاحكا مغامرة الزراعة المطرية، يستمع له بدر بشغف، رغم أن الرجل لا يبدو عليه أنه يكترث لمن حوله، كأنه يتحدث مع نفسه، يبدأ فى حكاية قصة ما، ثم يستغرق فجأة فى النوم أو الغناء، يغنى أغنية:
طلعت القمرة
أخير يا عشايا
تودينا لأهلنا
بيسألوك مننا
يقول: الزراعة بالمطر تشبه الانقلاب العسكرى، سينتظرك أحد مصيرين لا ثالث لهما إما القصر أو السجن!، أثناء حديثه لا يكف لحظة عن إصلاح هندامه، يصلح من وضع العمامة على رأسه، يسحب الشال من حول رقبته ويعيد وضعه، يتوقف لبرهة يتأمل وهو يمسك بطرف الشال ثم يستغرق فى الضحك، ويحكى قصة رجل كان يمتلك مشروعا فى مناطق الزراعة المطرية فى شرق الوطن، حين بدأ الموسم كانت الأمطار تهطل فى كل

مكان عدا نطاق مشروعه، أراضى جيرانه كلها ارتوت بالمياه، لكن الجفاف كان يبدأ فى حدود مشروعه من كل الجهات بعصا ساحر، حين انتهى الموسم الزراعى، جاء جيرانه من المشاريع المجاورة لمواساته، وتقديم مساعدات له من إنتاج مشروعاتهم الذى نجح نجاحا فائقا، قال بحزن أنه لا يشعر بأسف لضياع الموسم الزراعى، لكنه يشعر بمرارة من الظلم الذى تعرض له بسبب تخطى العناية الإلهية له وتوزيع المياه على الجيران! يعيد وضع الشال حول عنقه، ثم يتوقف متأملا قبل أن يسترسل مرة أخرى فى مشاريعه الزراعية والصناعية، يشيد مصانع لعصر الزيوت، ومصنعا للنسيج، ثم منح نفسه وساما وطنيا من الدرجة الأولى، تسلمه من رئيس الجمهورية باعتباره المنتج الأول. قبل أن يحقق حلمه الكبير: يصبح نائبا فى البرلمان! حين يتدحرج إلى مستنقع السياسة يكتسب غناؤه بعدا وطنيا، يردد مقاطع أناشيد مدرسية تمجد ثورات مجهولة.

يقطع عليه بدر الدين سيل أحلامه حين يحضر طعام الغداء. يسأله متى يخرج الشيخ السائح من عزلته، فيرد الرجل الغريب أنه لا يعرف. يلاحظ بدر الدين أن الرجل يأكل بنهم شديد ويتحرك باستمرار لشرب الماء من زير الماء تحت شجرة اللبخ ثم يخطف الإبريق ويذهب للتبول بين أشجار الموالح، حين يشير له بدر الدين على المرحاض الواقع فى ركن الفناء، يقول إنه يفضل أن يقضى حاجته فى العراء. يؤمن بمقولة سمعها من شخص ما التقاه أثناء ترحاله بحثا عن الزئبق الأحمر:

يكون الإنسان فى قمة صفائه العقلى أثناء قضاء حاجته! يقول بجدية: ليس هناك أجمل من قضاء الحاجة فى الهواء الطلق، وسط النجوم المتهاوية، كأن شخصا فى السماء يقذفك بأحجار النجوم لتتوقف. تشعر كأن العالم يشاركك إفراغ عفن روحك، فى المرحاض تختنق من الحر، رائحة الغائط المتخمر والخوف من انهيار البئر بك، ليس هناك أسوأ من الموت غرقا فى الغائط!.

ضحك بدر الدين، بدت له فكرة التغوط فى الهواء الطلق مسلية. بعد الغداء يحضر أكواب الشاى الأحمر، يشعر أن هذا الغريب لديه حكايات كثيرة ومثيرة من النوع الذى كان سمل يعشقه فى الزمن الغابر، قبل أن ينسحب إلى دواخله، قبل أن تمتد يد وقائع مطمورة فى ذاكرة الموت وتسحبه إلى الداخل، تسحبه تدريجيا، حتى تبدأ تفاصيل الحياة التى كان جزء منها يخفت فى عتمة زاحفة لتبدأ فى التفتح فى الوقت نفسه ورود حياة أخرى، تسير بتواز متناغم مع أحلامه. حتى إنه كان يصاب أحيانا بالارتباك حين لا يستطيع تمييز إلى أى عالم تنتمى بعض الأصوات والروائح التى تتسلل إلى ذاكرته فى لحظات خمود الزمن.

سمل كان يغادر المزرعة فقط حين يذهب لعمله فى الأندلية. يعمل طوال النهار فى المزرعة. بعد نهاية موسم الشتاء الذى زرع فيه القمح والفول المصرى، بدأ يعمل فى شتل أشجار نخيل جديدة. كان قد تعلم كيف يقوم بقطع الأشجار الصغيرة التى تنمو على جذوع أشجار النخيل القديمة، تعلم ذلك حين كان يذهب قبل سنوات للعمل فى جنينة العمدة أثناء عطلة الصيف مع رجل غريب اسمه الطيب عمل لسنوات فى جنينة العمدة قبل أن يسافر فجأة. بفضل الطيب تعلم سمل كيف يميز بين الشتول الأنثى والذكر، ثم يقوم بعملية تصفيحها، وضعها فى صفائح وإضافة قليل من التربة لتنمو جذورها قبل نقلها إلى الأرض. كان الطيب هو الشخص الوحيد الذى ارتاح سمل إلى التعامل معه، لم تكن لديه حتى فى الفترة قبل حدوث مشكلتهم مع الجيران بسبب شمس، علاقات قوية فى القرية. كان يذهب أحيانا إلى المسيد، لا يذهب وحده، يكون دائما برفقة شخص ما، يجلس بعيدا، حتى حين يطلب منه شخص ما قراءة أو كتابة رسالة كان يقوم بذلك بدون حماس ظاهر ويلتزم بكتابة ما يطلب منه حرفيا دون حتى أن يعدّل فى صياغة الكلمات أو يصحح أخطاء اللغة، بحيث تبدو الرسالة فى النهاية وكأن مرسلها يتكلم مباشرة.

هبط المساء وغرق العالم فى ضوء قمر هبت مع بزوغه أنسام لطيفة خففت من سطوة الحر، صمت شديد يقطعه صوت محرك بعيد لرفع الماء، أو أصوات بعيدة غامضة. كان الشيخ السائح يقول أنها أصوات الجان الذى يستوطن نهر النيل منذ الأزل. بدر الدين كان يدفعه الشوق لرؤية الشيخ السائح والفضول لمعرفة ما يفعله داخل الغرفة المغلقة فى هذا الحر الشديد. تذكر سمل حين تصاعدت مع تغير اتجاه الريح صوت أنغام طنبور وغناء بعيد كان يتسرب فى صورة أمواج تختلط برائحة أشجار النيم وضوء النجوم. استسلم بدر للنوم فى مكانه فى بساط السعف الذى يؤدى فيه الغرباء صلاتهم. استيقظ على ضوء الشمس يحرق وجهه، تلفت حواليه، لم يكن هناك من أثر للرجل الغريب، فقط آثار السيارة التى غادرت المكان، بحث عن الشيخ السائح فرآه قادما يحمل إبريق الماء بعد أن قضى حاجته، انتبه بدر الدين لخطواته المرهقة ووجهه الذى بدا فجأة وكأنه شاخ مائة عام. كان جسمه مهدودا ومغطى بتراب أبيض فبدا مثل ميت غادر قبره.

سميرة كانت قلقة جدا طوال أيام بسبب انقطاع أخبار ساتى، كان قد أرسل لها قبل عدة أشهر مبلغا من المال ساعدها على معالجة بعض مشاكلهم الناجمة عن احتراق مخزون الحبوب ونقص إيراد محصول النخيل، بسبب الجفاف، رغم مجهودات سمل لتأهيل جزء كبير من الأشجار، فللمرة الأولى

وبسبب انحسار فيضانات نهر النيل أصبح ضروريا سقى أشجار النخيل بانتظام لضمان طرحها للثمار سنويا. لكن رى الأشجار كلها كان مكلفا جدا بسبب انتشارها فى مساحة واسعة، يحاول سمل علاج المشكلة بزراعة علف فى فترة الصيف للاستفادة من العلف ورى الأشجار فى الوقت نفسه، ساهم ذلك فى انتعاش جزء من الأشجار بعد جفافها لكن جزءا كبيرا بقى خارج إمكان معالجته.

سميرة اضطرت بعد بدء تدهور أحوالهم لبيع جزء من الأشياء التى أعدتها للزواج. باعت جزءا من طقم حلى ذهبية كان والدها قد أهداه لها قبل سنوات، باعته فى سوق الأربعاء لتاجر غريب ورغم حرصها الشديد فى كتم الأمر لكنها كانت تشعر بالخوف الشديد أن يكون شخص ما رآها وهى تبيع ذهبها. ورغم قناعتها أنها كانت تبيع جزءا عزيزا منها لدواع صعبة للغاية، لكنها أيضا شعرت بحزن من يشاهد أهم أحلامه ينسرب من بين يديه، تحاول أن تقنع نفسها أنها لا تفعل ذلك بسبب بدء استسلامها لليأس، لكنها ترى بمنظار الحزن: أن النتيجة واحدة فى النهاية.

رافق ذلك استعادتها لمخاوفها السابقة، كل خطوات الحياة من حولها تفسرها كخطوات للموت، أوراق الخريف الصفراء التى تحملها الرياح الساخنة وتملأ بها الأفنية تجد فيها سميرة إشارة للموت، الشوق والحنين إلى الأيام الخوالى فى جوبا، الحنين الخارق إلى بيتهم هناك وروائح الحياة هناك التى كانت تهب من حولها، كلها كانت تصب فى النهاية فى مجرى مخاوفها، كإشارات مؤكدة أن تلك المعالم السعيدة فى الذاكرة كانت بسبيلها لتنمحى إلى الأبد لا بسبب تقدمها فى السن، بل بسبب الموت.

كان الشيخ السائح مشغولا بحزم متاعه القليل استعدادا للرحلة الأخيرة حين حضرت سعيدة، شرحت له حالة سميرة وطلبت منه أن يساعدها لعلاجها.

دخل الشيخ السائح إلى البيت للمرة الأولى رغم بقائه فى المكان لبضع سنوات. اجتاز الفناء الواسع حيث على اليمين البيت الصغير الذى يقيم فيه سمل وزوجته ووالدتها، والذى كان يقيم فيه محمد عثمان وشقيقه قبل وفاتهما. وتوقف أمام صالة البيت الواسعة التى يحيط بها نبات اللبلاب، فى نفس المكان الذى توقف فيه مصطفى فى زيارته الأخيرة قبل سنوات حين حاول محاكاة نبات اللبلاب ليتسلق عبر كوة الذكريات إلى أحلام الأميرة، عبر انتحال صورة شقيقه المفقود. لكن خطواته كانت تفضحه، حتى إنه كان يتوقف فى كل لحظة لا ليستجمع أنفاسه فقط بل ليعطى الزمن فرصة ليدفن وقع خطواته، خطوات قاطع طريق، فى نبض إيقاع الأشياء من حوله.

سعيدة بت نور الله كانت هى التى طلبت من الشيخ السائح أن يبقى فى القرية، سميرة كانت قد تحسنت صحتها بعد أيام استعملت خلالها أعشاب الشيخ السائح الطبية. رأى الشيخ السائح الفتى الذى يؤرق مصيره سميرة، لا يزال على قيد الحياة لكنه يواجه أخطارا كبيرة. ستسمع نفس الكلام بعد أيام من التاجر الذى كان يسافر إلى الجنوب أحيانا، أوضح لها أن الأوضاع تتدهور بسرعة وأن الحرب نشبت من جديد، قال إنه التقى ساتى منذ سنوات بالصدفة واتفقا على العمل سويا حيث كان ساتى راغبا فى استئناف تجارة جده، لكنه اختفى منذ ذلك الحين وسمع أنه انضم لإحدى المجموعات المتمردة كانت تهاجم أطراف بعض المدن وأنه وبسبب صراع بعض الميليشيات القبلية كاد يفقد حياته ونجا من محاولة أخرى لتسليمه للجيش الحكومى.

بدر الدين كان يعانى طوال أيام بعد سفر الغريب، لم يكن يعرف إن كان الغريب قد حقق أمنية حياته وأصبحت لديه أموال تملأ مخزنا مثل الحبوب. الشيخ السائح لا يقول شيئا. لكن فكرة أن يصبح الإنسان فجأة ثريا بدت له فكرة رائعة تستحق المغامرة. كان قد سمع واعظا فى سوق الأربعاء يحذر الناس من الدجالين الذين يصدّق البعض أنهم باستخدام السحر يستطيعون تحويل المعادن إلى ذهب أو إنزال نقود هائلة. وقال إن هؤلاء سيكتشفون بعد أيام أنها ليست سوى ورق لا قيمة له. سميرة اعتقدت أن نوبات سرحانه كانت بسبب آلام الأسنان التى يعانى منها، قررت أن ترسله لمقابلة طبيب الأسنان فى المدينة.

لكن بدر الدين كان منشغلا بشىء آخر، أقنع الشيخ السائح بعدم السفر، لم يصدق الشيخ السائح فى البداية أن الفتى كان جادا فى الحصول على الزئبق الأحمر، شرح له الفتى أن سميرة لن تمانع لأنهم يعانون مصاعب جمة بسبب الجفاف وانقطاع أخبار مصطفى وساتى.

لم يستجب الشيخ السائح، كان يشعر أن الفتى يملك من الإرادة والقوة ما يؤهله للحصول على ما يريد، كما كان مقتنعا أن التجربة ستزيد الفتى قوة، حتى إن فشل فى العثور على طلبه، وتزيده خبرة وقوة فى مواجهة العالم، لكن شيئا غامضا دفعه للرفض، شيئا لم يجد له تفسيرا سوى شعوره أن الأسرة التى بات يشعر بانتماء غامض لها كانت فى حوجة أكثر لبقاء الفتى بجانبها. حاول إقناع بدر الدين بعبث الرحلة إلى المجهول، وبابنته التى لم يرها طوال سنوات، وبأن الحياة لم تعد آمنة هناك بسبب المعارك حول المراعى الشحيحة بسبب الجفاف. حين شاهد إصرار الفتى، أرشده إلى بديل قد يمكن العثور عليه بسهولة: نبات صحراوى يثمر نوعا من اللبان

النادر، وأنه مستعد للعودة حالما يخطره هو برسالة سيترك له عنوانا ليرسلها إليه.
فكر الشيخ فى البداية أن يرافق إحدى القوافل المسافرة عبر الصحراء، لكنه شعر بوهن فى جسمه خشى معه ألا يستطيع إكمال الرحلة الطويلة على الجمال. اشترى الشيخ السائح تذكرة فى الباص المسافر مطلع الأسبوع إلى مدينة كريمة التى سيستقل القطار منها إلى الخرطوم. لكن رسالة كانت تزحف فى البريد وعبر الأيدى سيتسلمها قبل يوم واحد من سفره، ستغير حياته إلى الأبد بالأخبار الرهيبة التى حملتها.

سمل لم ينتبه فى البداية لطاقة الحنين التى انفتحت فجأة على فضاء دواخله وبرنامج حياته اليومى الثابت، يستيقظ مبكرا كل يوم حتى فى موسم الصيف حين لا يكون هناك عمل كثير يجب القيام به، يحمل طنبوره ويغادر البيت حتى لا يزعج زوجته وجدتها، ينشغل أحيانا بتقليم جريد شتوله، بفضل جهوده أمكن تأهيل جزء من مزرعة النخيل رغم أن الجزء الأكبر من النخيل القديمة سقط بفعل العطش والرياح. يستيقظ مبكرا رغم أنه يخلد للنوم متأخرا خاصة فى ليالى الصيف حين يذهب للغناء فى الإنداية التى يسميها بعض تلاميذ المدرسة :سوق الحب، لم يفكر فى التوقف عن الذهاب

إلى هناك، رغم أنه كان يشعر أحيانا بالملل من تكرار نفس الأغانى وسماع نفس ردود الأفعال المبتهجة فى اللاوعى. حتى إنه كان يتوقف أحيانا فى منتصف الأغنية، يسحب ألحانه من الجو ومن آذان السكارى ويغادر المكان، لا يحاول أحد أن يثنيه عن الرحيل، كلهم بمن فيهم سيدة البيت تعرف نوبات مزاجه، لا يعطى أبدا انطباعا أنه يغنى لشخص ما، ينكفئ فى قاع روحه حتى وهو فى أوج ذوبانه فى العالم الذى يعيد تشييده من خلال ألحانه.

ذات مرة توقف أحد السكارى فوقه، وبسبب إرهاق البهجة، انهار بجسده الضخم فوقه، واختلط اللحن بسيل من الدموع واللعاب، لم يحدث شىء، استمر الفتى يغنى وكأن شيئا لم يحدث، حتى جاءت فتيات البيت وسحبن الجسد الضخم من فوقه. بالعكس لم يبد عليه ولا حتى أنه استاء من تصرف السكير، الذى اشتهر بالوقاحة مجرد أن يشرب كأسا واحدا من عرق النخيل حتى يبدأ فى توزيع شتائمه على الجميع، يعرف كل شىء عن كل الناس فطوال أعوام لم يقم بأى عمل نافع سوى بقائه طوال اليوم أمام بيته فى الشارع العام، متسترا خلف لافتة السأم وقرض الشعر لمواجهة العالم، يعيش من فتات معاش ضئيل ومساعدات قليلة يرسلها شقيقه المسافر. كان يرأس كل اللجان التى تتكون فى القرية والتى لم تحل طوال عقود ولا حتى مشكلة واحدة. وبسبب غرامه بأخبار العالم، كان يجلس سحابة نهاره تحت ظلال شجرة النيم أمام بيته، وبسبب كبر سنه، يتوقف الجميع للسلام عليه، ينزل الصبية من على ظهور حميرهم حين يعبرون من أمامه حسب العادة المحلية فى توقير كبار السن. بإمكانه بالطبع إيقاف ذلك إن أراد، لأن بعض الصبية يكونون فى عجلة من أمرهم للحاق بالمدرسة أو العمل، لكنه لم يجد فى ذلك مبررا ليتنازل عن الاحترام الذى يستحقه بسبب السن، لم تكن له من أمنية سوى أن يقود انقلابا عسكريا يغرق العالم فى البهجة. ذات مرة ارتكب أحد الصبية تلك الجريمة التى لا تغتفر، عبر من أمامه وهو على ظهر حماره، فيما صوت غنائه غير المتسق مع مظهره يغرق العالم فى دوامات من الغبار والحنين.

أوقفه العوض بصرخة مزقت دوائر الغبار والحنين وأرعبت الحمار فألقى بالصبى أرضا، لم يأبه العوض إلى أن الصبى كان يبدو غريبا وبالتالى ربما لا يعرف العادات المحلية.

لماذا لم تنزل من الحمار حين مررت من أمامي؟ ألا تحترم من هم أكبر منك سنا؟

قال الصبي: إننى أحترم كبار السن دون الحاجة لمغادرة حمارى.

صعق العوض من الرد، كان يتوقع أن يعتذر الصبى بسرعة وينتهى الموضوع خاصة أنه كان على وشك الدخول إلى البيت لأن وقت القيلولة اقترب حتى يستعد مساء للذهاب إلى الأندایة، قال بغضب: هل جننت يا فتى ألا تعرف عادات هذه البلدة، كيف تمر أمام الناس وأنت تركب حمارا؟!
قال الصبى: فى هذه الحالة أنت المخطئ يا سيدي!
كانت المرة الأولى تقريبا فى حياة العوض التى يقول له فيها شخص ما أنه مخطئ، رغم أنه فى الحقيقة ارتكب عددا من الأخطاء كفيلة برفعه لمصاف شيطان صغير، والمرة الأولى التى يناديه فيها شخص ما: يا سيدى. تذكر أن والده الراحل هو الذى كان يقول له دائما: أنت مخطئ، حتى حين يبذل جهدا فى إنجاز شىء ما على أفضل وجه، كان والده دائما يجد خطأ صغيرا يضيع به كل إنجازه.
عرف العوض أن الفتى غريب عن البلدة، فآثر أن يستخدم الصبر، خاصة أن الفكرة بدت له مسلية مع سأم القيلولة. سحب نفسا من سيجارته وقال: هل يمكنك توضيح الخطأ الذى ارتكبته؟
قال الصبى: مفروض أن تضع لافته فى مدخل الشارع تكتب عليها: ممنوع ركوب الحمار بين اللافتتين!
بدت الفكرة جيدة ومسلية حتى إن العوض كبح بصعوبة ضحكة كادت تفلت منه، قطب وجهه وقال: وما الداعى للافتة إن كان الجميع هنا ومنذ مولدهم يعرفون أن احترام الكبير له قوانين وأصول.
قال الصبى: لم أكن أعرف أن مجرد التقدم فى السن يصبح إنجازا، فى جوارنا يوجد رجل رأيته منذ أن وعيت على الدنيا وأنا أراه يجلس أمام بيته لا يقوم بأى عمل سوى الشجار مع بعض العابرين أو التحادث مع بعضهم، لقد مرت أكثر من عشر سنوات الآن وهو لا يزال فى مكانه ولابد أن احترامه قد تضاعف حسب ما تقول!.
ارتبك العوض قليلا وقال: قد يسىء البعض مزية السن لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، يجب احترام من رأى الشمس قبلك.
ضحك الصبى وقال: ثمة بلدان كما درسنا فى الجغرافيا لا يرى فيها الناس الشمس منذ مولدهم وحتى مماتهم، هل يعنى ذلك أنه لا يوجد احترام هناك بين الناس؟
وجد العوض وقاحة الصبى مسلية لكنه لم يجازف بالضحك خوف أن يفهم الصبى ذلك أنه اعتراف بالهزيمة. قال بهدوء: حتى إن لم تكن هناك شمس لابد أنه توجد وقائع يمكن الاستدلال بها على أن شخصا ما يملك خبرة بالعالم أكثر من شخص آخر.

قال الصبى: كلامك صحيح، الخبرة والمعرفة وليس السن، فى كل الأحوال بودى أن أحافظ على طرق الاحترام القديمة، لكن المشكلة لا توجد فى المدينة التى أعيش فيها حمير، هل أطلب من السائق مثلا كلما مر شخص كبير السن إيقاف الحافلة، وأنزل منها حتى يمر الشخص المسن، ثم أطلب من السائق مواصلة الرحلة بعد ذلك؟ وفى الحافلة يوجد أناس كثيرون إذا رغب كل منهم إظهار احترامه لأحد المارة فكم شهرا ستستغرق رحلة الذهاب إلى المدرسة؟

كان ردا منطقيا، لكن العوض لم يرغب فى الاستسلام.

قال: لقد كنت فى العاصمة، عشت فيها سنوات، هناك مناطق فى العاصمة ستجد فيها نفس عاداتنا، ربما لا توجد حمير يستخدمها الناس للذهاب من مكان لآخر، رغم أنه توجد تلك التى تستخدم لجلب الماء من نهر النيل، أو تلك التى يستخدمها باعة اللبن. نعم الناس هنالك متعجلون، كأنهم يطاردون قطارا يأتى دائما قبل موعده، ربما هو هلع لأن أعدادا كبيرة تعيش فى مكان واحد وتطارد الرزق نفسه، أشبه بلعبة الكراسى.

ولماذا تركت المدينة لتعود إلى القرية؟

لا فرق، قال العوض، فى المدينة كنا نطارد الرزق ليلا ونهارا، نعمل كالثيران فى كل شىء وحين يحين وقت الإفطار لا نجد فى جيوبنا شيئا ندفعه ثمنا للخبز، هنا نعمل أقل لأنه لا يوجد شىء كثير لعمله، وأيضا حين يحين وقت الإفطار لا نجد فى جيوبنا مالا لندفعه، إذن ما الداعى لنترك بيوت أجدادنا؟

قال الصبى: لكنك هناك تتعلم أشياء تغيب عنك هنا.

قال العوض: بسبب سباق الرزق لا يوجد للناس هناك وقت كثير لكى تتعلم منهم شيئا. يمارسون الحياة بضراوة كأنهم يتعجلون الموت باستهلاك الحياة حتى آخر قطرة.

لكن للحياة هناك طعم مع المعاناة بعكس إيقاعها البطىء هنا؟

الفكرة واحدة قال العوض، هناك يستهلكون الحياة، ربما الناس هناك عمليون أكثر، يعرفون أنها مهزلة، يجب الخلاص منها بسرعة. هنا ربما الاستيقاظ المبكر والعالم لا يزال غارقا فى ظلامه، الاستماع لأصوات الطبيعة، الطبيعة التى هى جزء من حياة الناس، إذا غنى طائر فى وقت ما ستجد لذلك دلالة ما، الحر الشديد الذى يجب أن تتعايش معه دون أن تفكر فى هزيمته بالكهرباء، كأن الطبيعة تحفظ لك جميل عدم منازلتها، فتوعز للموت أن ينساك أو أن القصة ببساطة أن لا فرق بسبب عدم مرور الزمن، بين الحياة والموت هنا. حين يحضر الموت شخص ما لا يشعر بالفرق أو بأنه يخسر شيئا. يتم الانتقال بسهولة، نعيد غرسه كأننا نغرس شتلة نخيل

تخضع لدورة النمو الطبيعية. تخرج من الأرض ثم تعود إليها ثم تخرج مرة أخرى، إنه الحنين إلى الضوء يدفعنا للحياة أكثر من الحنين إلى الماء. وحين يموت شخص ما، يمكن لأى شخص أن يجلس فى مقعده أمام البيت ليخلفه فى انتظار الموت!

قال الصبى، تبدو صاحب تجارب كثيرة، أين كنت تعمل فى المدينة؟

ضحك العوض وقال: أنا مجرد مزارع مسكين، حين كنت مثلك كنت أحلم أن أقوم بانقلاب، كنت أحلم بعالم تسوده العدالة، يتشارك فيه الناس فى كل شىء، ضللت طريقى لأصبح مدرسا، ثم صرت نقابيا، ثم طردت من كل شىء وسجنت بدعوى انتمائى لليسار، والآن لا طموح لى إن قمت بانقلاب سوى أن أمدد ساعات الليل ليصبح أطول قليلا، وأبحث إمكان زيادة الليالى المقمرة أيضا. لأننى أحب النوم فى ضوء القمر، حين تخلد لنوم خفيف فى ضوء القمر، نوم خفيف لا يستغرقك بالكامل، تتأرجح فيه على مركب يعبر فوق أمواج ضوء القمر ويتصاعد من داخل الضوء صوت غناء وعزف على الطنبور يترقرق فى الأثير المشحون برائحة موسم الدميرة، لا تصبح محتاجا للجنة. يصبح الكلام عن الحساب والعقاب دون معنى.

أصبحا صديقين، رغم أن الصبى لن يبقى طويلا فى القرية، فقد جاء لقضاء بضعة أيام، أرسلته والدته ليزور القرية ويتعرف على أقاربه وأيضا ليجمع نصيبها من التمور من مزرعة نخيل صغيرة تركها المرحوم والدها، وكان أحد أشقائها يقوم باستثمارها ولا يحصلون منه على شىء من نصيبهم. أصدر العوض قرارا باستثنائه من مشاق احترام الناس، لن يحتاج للنزول من على ظهر حماره حين يعبر أمام كبار السن فى القرية. لكن الصبى اقترح حلا آخر، سيحمل فى المرة القادمة لافتة مكتوبًا عليها: إننى أحترمك كثيرا لكننى ركبت على ظهر هذا الحمار بصعوبة بسبب قلة خبرتى فى استخدام وسائل المواصلات التى تتنفس! اقترح العوض صياغة أخرى مختصرة لأنه يوجد من لا يجيد القراءة هنا سترهقه قراءة لافتة طويلة، وقد يضطر لإحضار من يقرأ ويكتب له رسائله لقراءة اللافتة مما يعنى عبئا ماليا إضافيا!: هل سترغب فى حملى وإعادتى مرة أخرى إلى ظهر الحمار بعد أن أظهر احترامى لك؟ أو يمكنك القول: يكفيك النقرس! لا أريد أن أرهقك بحملى وإعادتى إلى ظهر الحمار!

صداقته العابرة للصبى كانت مثل صداقته لسمل، الوحيد الذى كان قادرا على اختراق عزلة سمل، الذى كان يجلس فى بعض الأحيان ممسكا بطنبوره ومحدقا فى الفراغ طوال ساعات فى الوقت الذى يتحرق فيه السكارى الطيبون شوقا إلى قطرة طرب. يثير بصمته جفافا عاطفيا يمتد حتى إلى عروق السكارى المليئة بالدم الأبيض، لا يجرؤ أحدهم على

اختراق دائرة الصمت، حتى اليوم الذى رفع فيه سمل عينيه المرهقتين فرأى العوض واقفا أمامه مثل تمثال ضخم لأحد الآلهة. رأى فى عينيه وميضا متقطعا لحياة توشك أن تخبو لو لم يتم شحنها بخيوط من روح اللحن.
كان يمد يده مستجديا دون أن ينبس بكلمة، لا يدرى سمل كيف تحركت يده، وكيف بدأ اللحن الذى بقى معلقا فى فراغ عينى العوض فى التدفق من فمه حتى غرق العالم كله فى الصخب.
أصبحا صديقين، ليست صداقة سماعية مثل تلك التى كانت بين سمل والطيب حين عملا سويا فى مزرعة العمدة. الطيب كان متمردا على كل شىء وكان ينظر إلى أهل القرية باحتقار ربما دفاعا عن نفسه، فالجميع نظروا إليه باعتباره غريبا لا أصل له، نبتًا من المجهول. ورغم أن القرية قبلت فى أزمنة أخرى أن تستوعب بعض الغرباء فى مجتمعها، إلا الطيب لم يجد قبولا، تقدم لخطبة امرأة عزباء عاش معها زوجها أسبوعا واحدا قبل أن يسافر ليقوم بإعداد البيت الذى سيعيشان فيه ثم يرسل لها لتلحق به. انقطعت أخباره عدة سنوات، طاردته برسائل كانت تزحف فى عربات البريد وقطارات الصحراء، إلى النسيان. فاضطرت للذهاب للمحكمة التى حكمت لها بالطلاق منه. تقدم الطيب طالبا الزواج منها،كانت تحضر أحيانا مع بعض النساء للمساعدة فى جمع التمور فى موسم حصادها، لقاء أجر قليل فى نهاية كل يوم من التمر نفسه. لاحظ أنها كانت تنظر إليه خلسة أحيانا، كانت تحضر أيضا فى بعض الأحيان بحثا عن حشائش لماعزها. الطيب كان يساعدها حينئذ ويجمع معها الحشائش بل ويعطيها من برسيم صاحب المزرعة إذا لم تجد حشائش فى أطراف أحواض الذرة. بعد فترة أرسل الطيب يسألها إن كانت تقبل به فردت بالإيجاب، وطلبت منه أن يتحدث مع شقيقها، شقيقها لم يكن لديه مانع، كان يعيش فى بيت والده الراحل مع شقيقته ولم يكن هناك ود كثير بين شقيقته وزوجته، نصحته زوجته أن يقبل به، كان منطقها أن الناس تنظر للمطلقة نظرات غريبة وتحصى عليها أنفاسها، الزواج سيحميها. بقيت خطوة واحدة: موافقة أعمامه. رفض الاثنان، قالا: هل تريد أن تجلب لنا العار، رجل لا نعرف أصله.
صداقة سمل والعوض كانت شيئا مختلفا، صداقة لا يمكن فهم تفاصيلها دون وجود غطاء موسيقى، لم يتحدثا كثيرا، كانت البداية اختراق العوض أحيانا لدائرة الصمت واستجداءه للحب، لم يفهم سمل تدخله كتطفل من سكير، يتعجل البهجة، لكنه كان يظهر دائما فى الوقت المناسب الذى يجب أن يستأنف فيه سمل الغناء، كأنه مبعوث لسلطة تمثل آلهة غير معروفة للحب. سمل لم يكن يلاحظ الفرق، حين تتسرب آخر الأنغام من بين شفتيه،

يتشبّع العالم بموسيقاه، فلا يميز فرقا بين دواخله وبين العالم من حوله، يتدحرج من نفق دواخله إلى نفق العالم فيرى تفاصيل الوقائع المنسية فى ذاكرته معكوسة فى شاشة الحياة اليومية. لا يلاحظ أنها لم تكن سوى المشاهد الافتتاحية لبدء استيقاظ صور مدفونة فى الذاكرة، عرضا لبدء تمردها على النسيان، فى صورة حنين يبدأ فجأة فى أوج أدائه لإحدى الأغنيات، وفى حمى الغبار ورقص السكارى، فيتوقف عن الغناء فجأة، تبقى آخر إشارات اللحن معلقة فى الفراغ، مع غبار الرقصة الأخيرة وآهات السكارى.ثم يبقى كل شىء متجمدا حتى يكتشف العوض أن الزمن كان متوقفا وأنهم جميعا كانوا مثل أشباح من التراب تجمدت فى حركة الرقص الأخيرة قبل توقف الأغنية. سمل لحظة توقف الزمن كان هو الوحيد القادر على تحريك زمانه الخاص، يستفيد من تجمد العالم من حوله فى تنقيب ذاكرته بحثا عن أصول الحنين الذى كان يتدفق أحيانا إلى روحه فى شحنة صغيرة دفعة واحدة تبدأ فى التفكك والانتشار فى دواخله تدريجيا فى أوقات مختلفة. يحاول بسرعة تجميع قطع الصور المشتتة فى ذاكرته، جزء من جذع شجرة، نصف باب، أجزاء من سقف بيت، شمس غاربة، يحاول استباق النتائج: هل هى صورة البيت الذى رآه صغيرا فى جوبا؟ يقفز إلى صور أخرى محاولا تجميعها بسرعة قبل أن يتحرك الزمن من حوله، يخطف الضوء بصره، قبل أن يضيف قطعة أخرى فتترقرق أمواج نهر ذهبى وأجزاء من وجه ساحر، يبحث عن العينين، فجأة يتبخر كل شىء من أمامه، العوض يمد يده، يسحبه من بئر متاهة عوالمه الأخرى. مع ضربة واحدة على أوتار الطنبور يتحرك الزمن، يستأنف السكارى الرقص، ويستأنف الغبار المعلق فى الفراغ مسيرته نحو خيوط الضوء.

فى مرات قليلة غنيا معا، سمل لا يحفظ بعض كلمات الأغنيات التى يطلبها السكارى، يتطوع تاج السر بتلقينه الكلمات واللحن، منه سمع للمرة الأولى بأغنيات مصطفى سيد أحمد،كانت تلك مناسبة أشبه بميلاد حلم، غاص مرة فى متاهة صمته، وفجأة دون أن يعرف إلى أى زمان كانت تلك اللحظة تنتمى، أمسك طنبوره وغنى بصوت ملائكى بلغة الدينكا:

إنا لنصلى لأم الآلهة

من جمع سحرى هادئ

فى أرض كواك لياث جوك..

شحنة لحن أفرغها سمل دون أن يعرف عنها شيئا، قال تاج السر مصعوقا: هذا غناء الدينكا، هل تتحدث لغة الدينكا؟ نفى سمل بإشارة من يده. اعتقد تاج السر أن الفتى ربما سمع شخصا ما يردد الأغنية وحفظها فى ذاكرته. قال إنه لا يعرف لم جعله غناء الصبى بلهجة الدينكا يتذكر لحنا آخر:

يا سر مكتوم فى جوف أصداف
الريح القاسية عنيدة.. تمام
طفت القنديل..
الكان مقدوح من دمع الليل
رمت القُنديل الكان نديان فى جرف النيل
رسمت أحزان..
وسؤال حيران..
فى عيون أيتام

يغنيها سمل بنفس سحر اللحن الذى نبع من دواخله فى لحظة مد ذكريات الموتى. بنفس مقياس الزمن المتسرب من ذاكرة الموتى، لا ينتبهان إلى أنها كانت نفس لحظة وصول المغنى صاحب اللحن فى رحلته الأخيرة إلى ود سلفاب.

مع بقية الرواد كانت علاقته غير واضحة الملامح، رغم أنه فى فترات الاستراحة وأثناء تناول الطعام كان يحب الاستماع إلى حكاويهم التى تذكره بالعم الطيب.

عبد النعيم الذى كان يعمل حاجبا بالمحكمة الشعبية، يحكى كيف حصل على عمله، فقد كان زبونا دائما للقاضى بسبب حبه الشديد للتجول فى شوارع البلدة بعد أن يشرب الخمور، ولأنه لا يعبر بهدوء فقد كان ينتقد كل شىء أثناء مروره، كان ينتقد الغلاء وغياب العدالة وارتفاع درجة الحرارة. يقول متعجبا: يمكنك فى هذا البلد أن تتحدث دون خوف حتى عن العناية الإلهية، لكن مجرد أن تبدأ فى الحديث عن الحكومة، حتى يقيموا عليك حد الخمر، يفتخر أنه وهو مخمور يحافظ على ثباته، لا يترنح، يقول، سألت الشرطى ذات مرة: كيف تعرف أننى مخمور، قال لي: ما تقوله من كلام لا يصدر عن شخص واع! يا للمهزلة، من يقول الحقيقة يصبح مخمورا حتى لو لم يشرب قطرة خمر. ذات مرة يبدو أن الشرطى كان قد سئم إلقاء القبض على يوميا، حين وجدنى مخمورا عبث داخل جيبى فوجد ورقة نقدية لا أذكر قيمتها، وضعها خلسة فى جيبه معتقدا أنه يمكن سرقة شخص مخمور، أو إجباره على دفع رشوة، هل تصدقون ما حدث؟ رجال الشرطة يسرقون؟ إذن من الذى يجب أن يقبض على اللصوص؟ كيف يتطوع شخص ما ويحصل على الرشوة بنفسه؟ كان مخطئا حين ظن أننى يمكن أن أترك له المال مقابل إطلاق سراحى. صفقة جيدة بالنسبة له خاصة أن الحكومة لا تدفع له سوى القليل بحيث يبدو اللص أكثر رفاهية منه. بدلا من أتركه يفلت بالمال، أمسكت بخناقه، جاء شرطى آخر، وفى النهاية

ذهبنا إلى قسم الشرطة، فتح هو بلاغ سكر ورشوة فى مواجهتى ودونت أنا بلاغًا بالسرقة فى مواجهته.
يوم المحكمة كان هو مصرا على اتهامه أننى كنت مخمورا وشرعت فى رشوته، لكن القاضى أقنعه بسحب تهمة الرشوة لأننى لا يمكن أن أكون مخمورا وتوجه لى تهمة الرشوة، من الطبيعى ألا أكون مسئولا عن كل أفعالى تحت تأثير الخمر، جلدت أربعين سوطا، ليس ذلك سيئا، حتى فى الأفراح نتعرض للضرب وتزغرد النساء.
لم يزغرد أحد فى المحكمة، ذلك مفهوم،كل النسوة الموجودات فى المحكمة لديهن مشاكل مع أزواجهن أو مع الحكومة التى ترفض دفع معاش الموتى، لأنها حكومة متدينة تؤمن بأن الرزق ينقطع بمجرد موت شخص ما! الغريب أنه حين تكون هناك انتخابات يستيقظ نفس هؤلاء الموتى الذين انقطعت أرزاقهم بقرار حكومى، ويدلون بأصواتهم لمرشح الحكومة! لا يوجد معارض للحكومة بين الموتى! معظم الأصوات التى تفوز بها الحكومة فى الانتخابات هى أصوات هؤلاء الموتى المفلسين! أصبح القاضى صديقى، بسبب تكرار وقوفى أمامه، قال لى مرة بعد أن أعطانى حصتى اليومية: لقد عرفت أنك من أسرة كريمة، والدك كان يدرّس الطلبة القرآن فى الخلوة، ولكن كما يقولون النار تخلّف الرماد! قلت له: والدك أيضا كان مشهورا بإكرام الناس وكان بيته مليئا دائما بالضيوف، والآن أنت تجلد الناس دون أن يؤذوا أحدا أو يسرقوا مليما، الحكومة تسرق البلد فى وضح النهار، لا تستطيع أن تجلد أحدهم، لا يستطيع القاضى جلد من يدفع مرتبه!
ألا ينطبق عليك أيضا كلام النار والرماد نفسه؟ ضحك من مزاحى ولم يهتم بوقاحتى، وقال لماذا لا تبقى فى البيت حين تشرب بدلا من التعرض للإهانات اليومية؟ وقال محذرا يجب أن تأخذ حذرك ربما يحضرونك لقاض غيرى يفرض عليك عقوبة أقسى! قلت له: يا مولانا لن أحضر بسبب جريمة قتل، إنها أربعون سوطا إن تم إحضارى أمامك أو أمام غيرك!.
ضحك من وقاحتى وعرض على أن أعمل حاجبا فى المحكمة بشرط ألا أشرب الخمر نهارا، فوافقت. يقاطعه العوض: هل هو نفس القاضى الذى كانت زوجتك تشكوك إليه؟ قال عبد النعيم: لا، كان ذلك قاضى المحكمة الشرعية. كان رجلا طيبا ومحبا للناس لكن تطبيق القانون يجعلك مكروها. ينشئ مسافة بينك وبين أصدقائك، هل تذكر قصة ذلك القاضى الذى كان يدعو أصدقاءه للشراب معه مساء، وفجأة بعد أن يلعب الخمر برأسه يستيقظ ضميره القانونى ويخرج لاستدعاء أحد رجال الشرطة ليقوم بإلقاء القبض على أصدقائه! وكان يقول لرجال الشرطة كأنه يعتذر عن إزعاجهم

بسبب تأخر الوقت: إنهم أصدقائى لكن القانون هو القانون! إذا لم نطبقه على أنفسنا أولا لن نستطيع أن نعدل بين الآخرين!. سكير آخر كان سمل يحب سماع حكاياته، كان قد وهب نفسه منذ زمن طويل للشراب، وحين تعب والده بعد أن جرب معه كل الحيل لجعله يتحمل قليلا من المسئولية دون جدوى، حاول مساعدته ليصبح مزارعا ناجحا، لكنه كان قلقا جدا لا يستطيع البقاء فى مكان واحد. فى اليوم الأول للموسم الزراعى بدأ يومه نشيطا، ثم سرعان ما تناقصت همته، وبدأ فى البحث عن حيلة يهرب بها، استأذن من والده حين سمع صوت صفير الباص المسافر إلى أمدرمان بدعوى أنه يريد مقابلة شخص مسافر فى نفس الباص ليعطيه رسالة إلى صديق يقيم فى العاصمة، تشكك والده فى أنه كان يريد أن يتهرب ليرتاح لبعض الوقت، لكنه سمح له، دون أن يفكر أن الاستراحة ستمتد لخمسة أعوام، فقد استقل الباص واختفى فى العاصمة لسنوات.

وبعد عودته استمر فى نفس برنامجه دون أن يتأثر بشيء من حياة المدينة، واستمر يتهرب من الزواج، حتى عاد يوما بعد ثلاثة أيام قضاها فى بيت للشراب ولم يغادره إلا بعد أن أفلس تماما واستنفد كل فرصه للابتهاج بالاستدانة، مجرد دخوله إلى البيت، متلصصا مثل لص حتى لا يلاحظ أحد أنه كان غائبا لعدة أيام، مجرد أن وطأت قدماه فناء البيت، انطلقت زغاريد النساء، وغناء الفتيات، كأن دخوله كان إشارة لاستئناف الفرح، هب للرقص دون أن يسأل عن سبب الغناء، لديه طاقة رهيبة للرقص، ظل يرقص طوال ساعات، يختفى أحيانا لدقائق قليلة يشرب فيها من قنينة خمر يخبئها فى مخزن البيت. رقص مع الجميع حتى مع والده، ثم بدأ غبار الرقص ينقشع، تناول المدعوون عشاءهم وغادروا البيت فى وقت متأخر من الليل، انتبه فجأة إلى أنه كان يرقص وحده، والفناء خال إلا من فتاة جلست على مقعد فى طرف الفناء، اعتقد أنها لن تلبث أن تخرج أيضا، وزحف أرضا بحثا عن فراشه، ثم أخلد فى النهاية للنوم أرضا، حتى أيقظه والده.

تبخرت الخمر من رأسه حين سمع والده يقول: كيف تنام وتترك عروسك مستيقظة؟

عرف أنه ابتهج بالصدفة فى عرسه، وأن والده خدعه، لم تكن لديه فرص كثيرة، عاد مرة أخرى للعمل مع والده، ثم وبمساعدة بعض أصدقائه حصل على وظيفة خفير فى مدرسة، فصل له والده قسما من البيت فأصبح له بيت مستقل بفناء واسع، بمساعدة زوجته غرس ثلاث شتلات نخيل فى الفناء وشجرة نيم وشجرة ليمون، كانت زوجته تتولى سقيها من طلمبة الماء اليدوية، وتولى بنفسه نقل الرمل الأحمر من شاطئ نهر النيل لفرشه فى

الفناء، وساعد زوجته على دهن الجدران بالجير المحلى الأبيض، اشترى خزانة من خشب الأبلكاش والزجاج مطلية بلون ذهبى ووضعها فى صالة البيت لترتب زوجته أطقم الأوانى فيها، وتحسبا من الأرضة التى تأكل الخشب رفع أرجل الخزانة على علب معدنية صغيرة.
تحول إلى زوج مثالى يسلم زوجته مرتبه القليل آخر كل شهر ويتسلم منها كل أسبوع نقودا قليلة لشراء بعض مستلزمات البيت من سوق السبت.
أصم أذنيه عن صيحات زملائه القدامى من السكارى الذين كانوا يسخرون منه حين يعبر فى الطرقات على حماره حاملا مستلزمات البيت، وأصبحت عودته كل سبت من السوق مناسبة لتجمع من لم يصدقوا أنه يمكن أن يتحول إلى زوج مثالى لمشاهدة المعجزة.
وراجت أغنية شعبية كانت تندد بالخمور المحلية وتشيد به كرجل لم يستبدل الحب بزجاجة، وفضّل صحبة أهل بيته على صحبة السكارى وعابرى السبيل كما كانت تقول كلمات الأغنية.
طالت توبته حتى بدأ اليأس يدب فى قلوب أقرانه الذين كانوا يشعرون بالخجل كلما عبر من أمامهم بمنظره الورع وملامح بلاهة المحبة المنزلية فى وجهه، وكلما استمعوا إلى الأغنية التى تمجد إقلاعه عن البهجة.
حين ولد طفله قام بذبح خروف ضخم فى السماية، ودعا كل أهل البلدة للغداء، وبسبب ضيق بيته أصر والده على استقبال الضيوف فى ديوان البيت الكبير، اشترى حمارا من سوق السبت، شاخ حماره القديم فجأة فاستبدله بحمار قوى من أحد الغجر فى سوق السبت ودفع مبلغا من المال كفرق للسعر. قاد الحمار من السوق إلى المدرسة، تسلم مرتبه، وبعد انتهاء العمل توجه إلى البيت، كانت زوجته فى انتظار النقود لتذهب لدكان نور الله لشراء بعض المستلزمات، فقد قررا ختان ولدهما بعد يومين، لكنه لم يعد إلى البيت أبدا.
كان معتادا أن يجلس فوق حماره ويهز رجليه فيما يشق الحمار الذى يعرف طريقه جيدا دون توجيه، نسى أنه كان يركب حمارا جديدا، لابد أن الحمار كان يخص أحد السكارى الذين يعاقرون الخمر سحابة نهارهم، وربما كانت تلك هى المرة الأولى التى يحمل فيها ذاك الحمار شخصا غير مخمور، أو أن الحمار كان ذكيا لدرجة أنه فهم أن صاحبه الجديد سئم حياته، لم يلاحظ أن الحمار اتجه خارج البلدة، وأنه عبر فى الطريق الذى تحف بجانبيه أشجار المسكيت الذى كان يسميه قديما شارع الحياة، حين ينتهى فى أطرافه موات حياة القرية الرتيبة، صوت الثيران وهى تسحب النورج فى موسم الحصاد، وصوت ماكينات الماء، لتبدأ فى التنامى أصوات

الحياة، بصمت مشوب بروائح تقلب كيان الذاكرة، فتبدأ متعة من الماضى مجهولة الجذور.
توقف الحمار أمام بيت شراب، تلفت فى البداية حواليه بحذر مخافة أن يراه شخص ما، لم يستوعب فى البداية دقة الموقف حتى إنه فكر فى التراجع، خبط الحمار بعصاه، ليعود من حيث أتى، ثم أمسك بلجام الحمار فجأة وتوقف، ونزل أرضا وبحث عن جذع شجرة ربط حماره فيه دون أن ينتبه إلى أنه استخدم هذا الجذع قديما عدة مرات، ثم طرق الباب.
فى اليوم التالى أبلغت زوجته والده أن النور غائب لم يقض الليل فى البيت. بحث والده عنه فى كل مكان عدا بيوت الشراب، متمنيا أن يكون حدث له أى شىء إلا العودة للشراب، لم يعد إلى البيت أبدا، ذهب بعد أسابيع إلى البيت بعد أن نفدت كل نقوده لكن والده منعه من الدخول، أخبره أن زوجته عادت لأهلها وعليه أخذها مع ابنه من هناك إن رغب والاهتمام بهم بعيدا عنه.
منذ ذلك الوقت رجع إلى الإنداية، كان يساعد صاحبة البيت فى النظافة وحراسة المكان من السكارى المشاكسين، ولا يزال يحلم أن يعود إلى الاستقرار مع زوجته وطفله، رغم أن زوجته حصلت على الطلاق عن طريق المحكمة.
كان يشعر أحيانا بالحنين إلى أيام إقلاعه عن البهجة، يتذكر ولده الذى لم يره أبدا، ويجلس لينخرط فى البكاء، كان العوض ينتهره: اذهب لرؤية ولدك، من يرك هكذا يظن أن ولدك يعيش فى كوكب آخر، إنه على بعد أقل من كيلومتر من هنا، بدلا من أن تذهب لرؤيته تجلس لتنخرط هنا فى البكاء؟ لكنه كان يخشى من شىء ما أو يشعر بالخجل منهم، ماذا سيقول لولده، يفضل أن يدفن أشواقه فى البكاء والشراب. يمسح دموعه ويقول: حسبى الله ونعم الوكيل.
ثمة سكير آخر، يشرب بحرص، ربما أيضا لأنه بخيل جدا، أو بسبب خوفه على صحته، يشرب قليلا جدا من الخمر، يستمتع أكثر بمشاهدة السكارى وهم يتصرفون من دواخلهم، يحتفظ بوعى مطاطى، يختبئ خلف عينين تراقبان العالم بفتور، يلبس جلبابا أنيقا وعمامة ناصعة البياض وشالا حول رقبته، لا يبدو له الحر القاتل سببا مقنعا لكى يتخلى عن أناقته، وبحسبانه الابن الوحيد الباقى فى البيت فيما هاجر بقية إخوته، وتركوا له مهمة رعاية والدتهم المسنة، حين تسأل عن وظيفته ستجد ردا مبهما: يدير أملاكا ورثها عن والده، يدير بعض الأعمال التجارية لحساب إخوته، لكنه لم يشاهد قط يقوم بعمل ما، رغم مظاهر النعمة فى وجهه، والمسبحة

والذقن الخفيفة التى تعطيه ورعا زائفا يستخدمه كساتر يخبئ خلفه وظيفته الحقيقية: زان محترف.
يستخدم ورعه الزائف حتى فى الإنداية، كأنه يخشى على مشروب العرقى الجيد من العين: ما شاء الله تبارك الله يا له من شراب ممتاز، يدعو صادقا: اللهم احفظها نعمة من الزوال، لا يكترث لضحك وتعليق أحدهم: هل تسمى الحرام نعمة!
مجرد أن يشرب كأسه الأول حتى يستبدل وجهه الورع بوجهه الباطن الحقيقى، يستخدم كلمات بذيئة، يقول: تغير كل شىء، تغير الناس، هل تصدقون، الكل يبحثون عن المال وبكل الوسائل، لا يوجد إخلاص ولا حتى فى الحب، استوقفتنى امرأة جميلة يوم السوق، توقفت، رغم أننى أخاف على سمعتى أن يتناولها الصعاليك فى الطرقات: إننى أتحادث مع نساء جميلات يوم السوق وربما أستغل حوجتهن للمال لكى أبرم معهن مواعيد مسائية، تكاثرت أعداد العاطلين عن العمل، يجلسون سحابة نهارهم تحت ظلال الأشجار، يرقبون المارة ويتناولون سيرة الناس، لو لم يفعلوا ذلك سيصابون بالجنون: لا يوجد عمل، الكساد يعم الأسواق، أسعار المحاصيل الزراعية متدنية بينما مدخلات الزراعة لا يستطيع أحد شراءها، لا حل سوى أن تذهب إلى البنوك، وفى اللحظة التى تحملك أقدامك إلى البنك ينتهى بك نفس الطريق فى السجن، تنتشر العادات الرذيلة بسبب البطالة والفقر، من يجوع سيفكر فى قيمه القديمة فى المرة الثانية أقل من المرة الأولى، لا تفعل الحكومة شيئا لهؤلاء العطالى المساكين، إن تذكرتهم سترسل لهم عربات الجيش تقبض عليهم وترسلهم بالقوة إلى أتون الحرب الأهلية، أفضل أن تنساك الحكومة، حين تتذكرك الحكومة، يتذكرك عزرائيل!
استوقفتنى المرأة الجميلة وقالت لى أنها تريد أن أقوم بتوصيلها إلى مكان ما، وستدفع لى الأجرة، كيف عرفت أننى أملك سيارة أستخدمها كسيارة أجرة أحيانا؟ لا أدرى خصوصا إنه لا يعرف ذلك سوى بعض أهل قريتنا، لم أشك فى نواياها حتى بعد أن حددت موعدا لمشوارها ليلا، بعض الناس يفضلون قضاء حوائجهم بعيدا عن عيون النهار وآذانه، فكرت لابد أنها ذاهبة لشيخ جديد اشتهر بحل كل مشاكل الحب والزواج والبطالة، شيخ شامل يمكنه لقاء مبلغ قليل أن يحل كل مشاكلك، ويجعلك تشعر بالسعادة رغم أنك لا تملك شيئا، وبنعيم الحب، رغم أن كل النساء لم يتفقن سوى على رفضك كزوج، سمعته جيدة بعكس ذلك الشيخ الذى اشتهر لبعض الوقت بأنه يصنع المعجزات، فتقاطر عليه الناس من كل مكان، ثم اكتشفه أحدهم بالصدفة وهو منخرط فى الحب مع إحدى النساء وحين سئل عن ذلك

قال إنه لم يكن يضاجع المرأة بل يضاجع الشيطان الذى يستوطن جسدها لإجباره على مغادرة جسدها! يجب أن تنتبه جيدا من البشر حولك، لقد ضاجعوا الشيطان نفسه! وكيف سيتصرف إن وجد الشيطان تلك المضاجعة أمرا ليس سيئا (أليس شيطانا؟) وبالتالى توغل أكثر فى جسد المرأة حتى يبقى على تلك المتعة الحرام؟
ثم اتضح بعد ذلك أن الشيطان قد يكون مظلوما، حين ثبت أن ذلك الشيخ حاول ممارسة الحب مع نسوة لم يشتكين من أية مشاكل.
قلت: خيرا وبركة، شرحت لى كيف أصل إلى بيتها ثم ودعتنى وذهبت، بعد انتهاء السوق عدت إلى البيت وتناولت طعام الغداء ونمت قليلا، ثم جلست فى مكانى المفضل أمام البيت تحت ظلال شجرة النيم، لست مغرما بالحديث عن الناس إذا ما توقف أحدهم ليتسامر معى قليلا، لكن الأخبار تصلك على كل حال ما دمت تجلس على قارعة الطريق العام، الناس يحبون الأخبار، الأخبار مثل الأرزاق، بعضهم يسعى ويبذل جهدا للحصول عليها، والبعض تصلهم الأخبار فى مكانهم دون جهد يذكر، كان عمى مغرما بالأخبار حتى إنه كان يزحف أحيانا (فقد كان مقعدا) ليجلس على قارعة الطريق العام انتظارا أن يمر أحدهم يحمل خبرا ما حتى لو كان خبر وفاته شخصيا، المهم أن يتغلب على مللـه، حتى لو تم تدمير العالم كله.
كان مغرما بسماع نشرة أخبار الساعة الثامنة التى تذاع فيها أسماء الموتى، وتكتمل سعادته حين يسمع اسم شخص يعرفه، لأن إقامة العزاء فى المسيد ستعنى حضور الناس حتى المشغولين منهم بالحياة والرزق، وستكون هناك أخبار وحكايات رائعة، ذات مرة قال لى بحزن حين مررت صدفة بالمسيد ووجدته يجلس هناك وحيدا بسبب انشغال الناس بالرزق، قال لى لقد هرمت يا ولدى ولا شخص يؤنس وحدتى، لدى جهاز راديو كان هو العصا التى أتوكأ عليها لأستمر فى الحياة، كان يؤنس وحدتى، لكنه تعطل، ألا تستطيع إصلاحه؟ اعتذرت له أننى لا أعرف شيئا عن صيانة أجهزة الراديو، يمكننى فقط ربط الخيط الذى يحرك مؤشر ضبط الموجات، لكننى عرضت عليه عرضا أفضل: بعد يومين سأذهب للمدينة يمكننى أخذ الراديو معى وإصلاحه. فرح جدا وقال أنه سيرسله مع أحد أحفاده مساء، لم يرسله أبدا، ما حدث أنه توفيت فى نفس اليوم العجوز شيرا، العجوز التى كانت تتجول طوال الليل صيفا وهى تغنى باللهجة النوبية أغنيات تؤلفها بنفسها، وكانت تجيد عزف الطنبور. أقيم مجلس للعزاء فى المسيد وتوافد المعزون من كل القرى المجاورة. حين ذهبت للعزاء وجدت عمى يجلس فى قلب حلقة من عدة أشخاص من خارج القرية وكان يسابق بأذنيه كل المتحدثين حتى لا يفوته خبر ما، نسى الراديو، لا يريد أخبارا قديمة

مكررة أو أخبار أناس لا يعرفهم، حتى لو كان مصير العالم نفسه بيدهم، هنا الأخبار الحقيقية من مصادرها، فلان تزوج للمرة الثانية، لأن زوجته رفضت العيش معه بسبب بخله، فلان فشل هذا العام فى تسديد قرض البنك وهرب ليختبئ فى حفرة ثعلب، فلانة ضبطت فى حقل الذرة وهرب الشخص الذى كان يمارس معها الحب وقوفا، يحضنها بيد ويمسك باليد الأخرى بعصا يطرد بها فئران الحقول التى توشك على التهامهما أحياء أثناء الحب.

توفى عمى بعد ذلك بأشهر قليلة، لابد أن أكثر ما أحزنه أنه لن يستطيع حضور مجلس عزائه.

بعد صلاة المغرب تحركت باتجاه بيت المرأة الجميلة، بيتهم يقع قريبا من منطقة السوق، مجرد أن توقفت العربة، حتى خرجت المرأة تفوح منها روائح عطور من تلك التى تستخدمها العرائس، إضافة للرائحة المميزة لدخان الطلح الذى تستخدمه النسوة لتسخين الحب، أخبرتنى أنها تريد الذهاب إلى قرية تبعد حوالى الساعة شمالا. ولكن لم تقطع السيارة سوى مسافة قصيرة حاذت فيها أجمة أشجار كثيفة حتى طلبت منى التوقف، ومدت يدها تداعب عضوى الذكرى، خفت أن تكون تريد ممارسة الحب مقابل النقود، ليس بخلا لكننى لا أرى خطيئة أكبر من أن يبيع أحدهم جسده.

واصل دون أن يكترث لتعليق أحد السكارى الضاحك: كل ما فى الأمر أنك تعودت على الحب المجانى، حتى الزواج لم تدفع فيه شيئا!

قال: سألتها ما الذى تريدين بالتحديد؟ قالت رغبت فى ممارسة الحب معك.

كلامها كان واضحا، لم ترد سيرة المال، تذكروا ذلك جيدا، حتى لا يقول أحدكم أننى أريد أن أبتهج مجانا.ذات مرة اشتكى لى موظف فى إحدى المصالح الحكومية أنه يسكن فى المدينة مع ثلاثة زملاء، اثنان منهما فشل إبليس فشلا ذريعا فى إغوائهما بمفاتن المدينة، مساء حين تبدأ الحياة، كانا يخلدان للنوم مبكرا بعد أن يصليا العشاء، يحافظان على نهج حياتهما الريفية السابقة. الزميل الثالث كان هو الوحيد الراغب فى البهجة، وكان مستعدا للسهر حتى الصباح، لكنه كان يعانى من مشكلة صغيرة، لم يكن يملك مالا! كان مرتبه كله تقريبا يذهب لزوجته وصغاره فى القرية، وهكذا كان يضطر هو أيضا للنوم مبكرا، دون أن يصلى العشاء!

اضطجعنا أرضا على رمال ناعمة وباردة، ولم يكن هناك من شاهد سوى القمر، قلت لها ضاحكا: بقى ثلاثة شهود لنجرجر يوم السوق ونرجم أمام العامة.

تعرت أمامى، كان شيئا ممتعا أن تتعرى أمامك امرأة جميلة فى ضوء القمر، ترى تفاصيل جسدها ولا تراها، كأنها حلم، اخترقت جسدها اللدن

بفضل حمى دخان الطلح، فكأننى أضاجع النجوم، يدخل ضوء القمر ورائحة المزروعات ونوار النيم إلى مسام جسدى فيتحرك إعصار الرغبة، يكنس أمامه حلم امتلاك العالم فى شخص امرأة بالغة الجمال. فجأة انتهى كل شىء، نفضت عن جسدى غبار ضوء القمر ولبست ثيابى وحين نظرت لها لأقول وداعا فوجئت بيدها الممدودة: تطلب مالا! قلت لها لقد قلت أنك ترغبين فى ممارسة الحب، قالت لم أقل أننى سأفعل ذلك مجانا!

استبد بى الغضب، فتبخرت كل المتعة التى أفرغتها من أحلامى فى الجسد المعروض للبيع، بحثت فى جيبى فوجدت ورقة مالية ألقيتها إليها وركبت سيارتى وانطلقت والغضب يعمينى عن رؤية الطريق.

ثم ختم قصته بتعليق تقاطع مع كلام السكير الذى سخر منه:

لو كنا نضاجع النساء بالمال، لمات أطفالنا جوعا!

يحضر أحيانا رجل شرطة إلى الإندية، اسمه عبد الجبار، رجال الشرطة مثلهم مثل البشر الآخرين يحتاجون لخرق القانون قليلا لشرب بضع أكواب من الشراب، كان عبد الجبار كلما سحرته روعة الشراب، يقول أستغرب منعه، لا يؤذى أحدا، هذا القانون وضعه مريض حاسد، منعه الأطباء من الشراب حتى لا يتليف كبده تماما ولا يريد للآخرين أن يستمتعوا بالشراب،كان بإمكانه تفادى مشاكل الكبد، لكنه كما قيل كان يشرب بإفراط ولا يأكل جيدا، مجرد أن يبدأ فى الشرب حتى ينسى كل شىء ويصبح الشراب فقط هو كل ما يريده فى هذا العالم، يشرب بجنون كأنه سيعيش أبدا إن لم يتوقف من الشراب، يقولون أنه كان يزعم أنه لا يسكر أبدا حتى وإن شرب برميلا من عرق التمر الجيد. لكن بعض موظفى البنوك الذين كانوا يعملون فى نفس المدينة التى عمل فيها قاضيا دعوه لحفلة شراب، وقدموا له نوعا قويا من عرق التمر، شرب بشراهة ودون توقف، تساقط الجميع أرضا وبقى هو يشرب حتى نفد كل الشراب، عندها غادر البيت، فى الخارج حين ضربت وجهه نسمة باردة لاحظ أنه يترنح من وطأة الشراب للمرة الأولى فى حياته، استند إلى الجدار وسمعه بعض المارة يردد عبارة صارت مثلا لفترة من الزمان، كما وردت بعض الإشارات عنها فى بعض الأغانى المحلية، كان يردد وهو يزحف إلى بيته: (لقد أسكرونى... هؤلاء اللواطيين!)

كان قاضيا جيدا، يقول الشرطى، لكن التوقف عن الشراب كاد يذهب بعقله، لو كان بالإمكان شراء كبد جديد من السوق لاشترى واحدا، ولما اضطررنا للتسلل مثل اللصوص كلما رغبنا فى الشراب.

كان عبد الجبار شرطيا طيبا، لا يحب التحدث عن عمله كثيرا، رغم أن القصص التى راجت عنه حكت أنه كان يساعد الناس الذين يقعون فى

مشاكل مع الشرطة، ذات مرة أثناء طوافه فى المدينة ليلا وهو يرتدى ملابسه الرسمية وجد شخصا مخمورا صدم بسيارته عمودا لأسلاك التليفون، ساعده ليدفع السيارة بعيدا عن العمود الذى سقط أرضا، ونبهه ليسرع بقيادة سيارته ويهرب من المكان مذكرا إياه: اذهب بسرعة قبل أن يحضر أحد رجال الشرطة!

يأسف أحيانا على غياب الانضباط الذى اشتهر به رجال الشرطة، ذات مرة أفرغ شحنة إحباطه فى حنين يائس للعهد الاستعمارى، قال: (حليل زمن كانت للعسكرى ريشة فى رأسه!) لاحظ العوض ضاحكا: تحولت الريشة الآن إلى رأس الحرامي!

لديه مهنة أخرى، يخفيها خلف جلبابه الرسمى نهارا، ويخرج صفارته مجرد أن يخلع الزى الرسمي: يعزف على الصفارة، كان يشارك سمل أحيانا الغناء بالعزف على الصفارة. حكى أنه شارك مرة فى حفل زواج ساهر، شرب فيه الناس مقدارا من الخمر يكفى لإبقاء المدينة غائبة عن الوعى لمدة عام كامل، وفى النهاية حين حان وقت إدخال العريس على عروسه، اضطروا لإحضار أربعة رجال أشداء حملوه على الأعناق وألقوا به فى غرفة عروسه، فى الصباح، أوضح: استيقظت مبكرا ولبست الزى الرسمى وبحثت عمن يقوم بتوصيلى إلى مكان عملى، فقد كان على أن أعمل مبكرا، وكنت قد اتفقت مع المغنى الذى عملت معه وأبلغنى أن أحدهم سيقوم بنقلى بسيارته مبكرا لمكان عملى، لم يظهر أحد، وكان المغنى والمدعوون وأهل البيت كلهم نياما بسبب الإفراط فى الشراب، وكلما أيقظت أحدهم ووقعت عيناه على زى الشرطة الرسمى الذى كنت أرتديه، كنت أسمع صرخة قبل أن يجذب النائم الغطاء بسرعة ويستغرق فى النوم، كانوا يعتقدون أننى حضرت لألقى القبض على المخمورين، فى النهاية جاء والد العريس، كان الشخص الوحيد الذى بقى واعيا، وحين شرحت له أننى تأخرت عن موعد العمل وقد يتم فصلى، قال لى مشيرا بخبث لعملى الليلى كعازف على الصفارة مع الفرقة الموسيقة:

●لا تهتم كثيرا باحتمال فصلك من هذا العمل، لديك وظيفة أخرى فى يدك!

ثم صحح نفسه ساخرا: أقصد فى فمك!

كان مغرما كلما شرب كأسا بحكاية قصص صديقه القاضى الذى كان يؤمن جازما أنه هو الذى صاغ قانون منع شرب الخمور بسبب مرضه، ذات مرة دعانى للشراب معه، لم أكن سعيدا جدا بدعوته بسبب عدم اهتمامه بالعشاء بعد الشراب، قال لى لدى ضيف قادم من بلد بعيدة وأريدك أن تكون معنا لتساعدنى إن احتجت لشىء، قلت له يا مولانا هل سيكون هناك عشاء؟ قال نعم، لدى ديك سنقوم بذبحه وإعداد العشاء سويا، شربنا قليلا فى البداية

حين وصل الضيف،كنا نجلس فى فناء بيته الصغير بسبب حرارة الجو على مقاعد قديمة وممزقة من خشب الخيزران. ثم اقترح القاضى أن يقوم بإحضار جهاز تليفزيون اشتراه فى نفس اليوم وتشغيله بجانبنا لأن التليفزيون سيبث سهرة يحييها فنان مشهور، لم يبد الضيف حماسا كثيرا لموضوع التليفزيون لكن يبدو أن القاضى كان يريد إثبات أنه يوجد فى بيته شىء واحد على الأقل يعمل بصورة جيدة.
قام بإحضار منضدة قديمة ثم ذهب لإحضار جهاز التلفزيون ليعود صارخا بعد قليل: سرق أحدهم الجهاز!
يمكن أيضا سرقة القاضى، القاضى ليس مسئولا مهما فى الدولة مثل الوزير لكى توضع حراسة أمام بيته، لبس ملابسه بسرعة ولم يكن لديه وقت، ولا حتى ليجيب على سؤالى إن كان ذاهبا لعمل بلاغ عن السرقة، عاد بعد قليل ومعه رجل غريب، تتدلى مسبحة لالوب طويلة من عنقه فوق صدره، جلس أرضا فى قلب الفناء وطلب مبخرا به قطع من الفحم ليبدأ عمله، وحين تعالى دخان البخور، كشف عن طلب آخر، الشىء الوحيد الذى سينجح فيه فى كل هذه العملية من أجل تحديد سارق التليفزيون، كان وصفه الدقيق للديك، الديك الذى أحضره القاضى لعشائنا وكان يقبع لحظة وصولنا فى قفص صغير انتظارا لمصيره المحتوم.
قام الشيخ بوصف الديك بدقة طالبا ذبحه لإكمال خطوات تحديد السارق، ذبح الديك بنفسه، فرحت وقلت الحمدلله لقد كفانا الفكى مشقة ذبح الطائر، رغم أننى شرطى، لكننى لا أحب منظر الدماء. أحضر القاضى ماء ساخنا ووعاء للشيخ الذى قام بنتف ريش الديك وانتزع الحوصلة، ثم فجأة تأبط الشيخ الديك الذبيح وأخذ طريقه خارجا موضحا أنه سيكمل بقية الطقوس فى بيته ثم سيعود فى وقت لاحق بعد أن تنجلى الأمور!
قضينا السهرة دون عشاء ودون تليفزيون ولا أظن أنه حتى اليوم أمكن عودة التليفزيون المسروق أو حتى الديك.
ويقول الشرطى: والغريب أن القاضى ورغم أنه هو الذى قام بصياغة القانون المستمد من الشريعة، لم يكن متدينا ولم أشاهده يصلى قط، وذات مرة سافرنا سويا فى رحلة عمل إلى أحد الأقاليم البعيدة، وأثناء عودتنا عبر الصحراء تعطلت السيارة، ذهب السائق مع بعض البدو الرحل الذين يعرفون الطريق فى الصحراء جيدا لإحضار قطع غيار لإصلاح السيارة ولبثنا نحن فى الانتظار، وكان معنا شخص متدين يقضى سحابة نهاره فى الصلاة، وحين يحين أوان الصلاة كان يخرج من السيارة ويرفع الأذان، انتهره القاضى قائلا له أن صوت الأذان سيجمع علينا الضباع الهائمة فى هذه الصحراء! كان الرجل المتدين رجلا لطيفا، يحب بعد الفراغ من صلاته

وقراءة أوراده أن يسمر معنا، فى الأيام القلية التى قضيناها بانتظار إصلاح السيارة، قلت له: لماذا تصر على رفع الأذان رغم أنه لا يوجد أحد هنا ليستمع إلى الأذان ويحضر لأداء الصلاة؟ شرح لى أن من يرفع الأذان يحضر يوم القيامة مرتديا ملابسه بينما يكون كل الناس الآخرين عراة، ضحكت حين تذكرت قصة سمعتها قبل سنوات فطلب منى أن أحكيها له، قلت له أن امرأة سألت ولدها نفس هذا السؤال، لماذا يصر على رفع الأذان فى كل مكان؟ فرد عليها بنفس ردك، إن من يرفع الأذان يبعث يوم القيامة فى كامل ثيابه بينما بقية الناس يكونون عراة، فقالت له والدته: ولماذا تصر أن تكون الوحيد الذى يرتدى ثيابا ما دام كل الناس عراة؟

سمل كانت زوجته تنتظر مولودا، رغم ذلك لا يغير شيئا من عاداته، يعمل فى الفترة الصباحية فى المزرعة ويتجه عصرا إلى الإنداية، أصبحت شخصيات الإنداية جزءا من حياته، حين يصل مبكرا أحيانا، يساعد الحزين فى تقطيع الحطب، وملء أزيار الماء، الفتيات يساعدن صاحبة البيت فى إعداد الأكل، وتنظيف غرف الحب، زبائن الشراب فى العادة لا يستخدمون غرف الحب التى لا يستخدمها سوى بعض الغرباء أو الشبان الصغار ممن يريدون تجربة الحب للمرة الأولى.

منتصف النهار يبدأ توافد الزبائن، معظمهم يقضون القيلولة فى المكان، بعض الشباب العابرين يظهرون أحيانا ولا يبقون فى العادة طويلا، يكتفون ببضع كؤوس من شراب المريسة ثم يغادرون البيت، وأحيانا يعودون فى الأمسيات لقضاء الليل.كان هناك رجل يلقب بالعقرب يظهر أحيانا فى الأمسيات، لم يكن يبقى طويلا، بسبب حبه للرقص والغناء، كان يخرج بمجرد أن يمتلئ رأسه بحثا عن حفلات الزواج ويقطع أحيانا على حماره مسافات طويلة بحثا عن الحفلات، وحين يقضى السهرة فى الإنداية كان يشارك سمل الغناء، اشتهر بالعقرب لأنه وبسبب نقص المال كان يضطر لاستدانة الشراب، وحين ارتفعت ديونه ورفض الجميع بيعه الخمر بالدين، لجأ لحيلة مبتكرة، كان بمجرد مغيب الشمس يبحث فى شقوق الجدران عن عقرب ويقطع ذنبه ويحمله فى جيبه، وحين يصل أحد أماكن الشراب كان يعلن فى البداية أنه يملك مالا وسيدفع تكاليف شرابه كاملة. وحين يشعر بأنه اكتفى من الشراب، كان يقوم بإطلاق العقرب من جيبه ويبدأ فى الصراخ بأنه تعرض للدغة عقرب فيسارع السكارى الطيبون لإسعافه، يخرج أحدهم موسى حادة لفصد مكان اللدغة، ويلصق أحدهم فمه بالجرح لامتصاص السم، وفى الغالب بالطبع فإن من يقوم بذلك لا يمتص شيئا سوى عرق التمر الذى يملأ دمه، ولا يلاحظ أحد أن العقرب الذى يمضى طليقا كان مقطوع الذنب، بعد فترة لم تعد حيلته مجدية لأن الجميع عرفها.

الحزين كان أحد معالم الإنداية رغم أنه لا يقيم بصورة دائمة فيه. كان يظهر هناك لعدة أيام أحيانا ثم يختفى فترة من الزمن ليعود مرة أخرى، شرح لسمل وهما يقطعان الحطب لوقود الطبخ، أنه على علاقة قرابة مع صاحبة البيت، وأنه مزارع نشيط، كان قبل سنوات مشهورا بأنه أفضل مزارع منتج فى المنطقة كلها.

لكنه ومنذ سنوات تبدلت أحواله بسبب انخفاض أسعار المحصولات الزراعية وغلاء مدخلات الزراعة، اضطر منذ سنوات أن يستدين من البنوك، ثم عجز عن السداد فأصبح كلما تعسرت أحواله وأصبح مطلوبا بواسطة الشرطة يختبئ فى الإنداية لفترة يحاول فيها معالجة أوضاعه.

حكى لسمل أن والدته التى تعتقد أن سبب مصائبه هى عين ساحرة أصابته بسبب شهرته كمزارع ناجح، أخذته إلى شيخ مشهور لعلاجه. لكن الشيخ رفض علاجه قبل أن يتوقف عن معاقرة الخمر. لم يكن الشيخ فى حاجة لقوى خارقة لمعرفة إن كان الحزين يشرب الخمر، فقد كانت رائحة الخمر القوية التى شربها فى الليلة السابقة تفوح منه حتى إن كل من يقترب منه كان يفقد توازنه لبرهة بسبب الرائحة القوية. سأله الشيخ مجرد أن أدخل عليه: هل تشرب الخمر؟

اعتقد الحزين من طريقة السؤال ولهجة الشيخ المتعاطفة أنه أمام رجل دين عصرى لا يمانع فى إكرام ضيوفه بالخمر، فقال:

نعم، هل لديك القليل منه هنا؟

والنتيجة كانت أنه طرد فورا من رحمة الشيخ لحين توقفه عن الشراب.

كان يحكى قصص مغامراته الطريفة أثناء هروبه من رجال الشرطة، قال أنه حين ضاقت الدائرة من حوله قبل أشهر، احتمى بصديق اشتهر بقوته الجسمانية الهائلة، كان متخصصا فى ضرب الناس، أحيانا بسبب وأحيانا فقط بدافع التسلية. وكان يفضل فى الظروف العادية ضرب رجال الشرطة، الذين كانوا يتجنبون طريقه.

ذات مرة وبسبب فشل موسمه الزراعى ارتفعت وتيرة الضرب، جاء رجال البنك لتحصيل أموالهم التى لم يقم بسدادها فى الوقت المحدد، توقفت أمام بيته سيارة هبط منها ثلاثة من موظفى البنك إضافة لرجل شرطة مدجج ببندقية وعصا غليظة. طلب منه رجل الشرطة أن يرافقهم، لكنه لم يلتفت إلى رجل الشرطة، بل انخرط فورا فى ضرب موظفى البنك الثلاثة، كان الضرب قويا ومبرحا حتى إنهم بعد عدة ضربات ساحقة لاذوا بالفرار تاركين رجل الشرطة وسيارة البنك، أثناء الضرب أشرع رجل الشرطة بندقيته مهددا طالبا منه التوقف وتسليم نفسه، لكنه لم يكترث له أبدا حتى فرغ من موظفى البنك ثم صفع الشرطى صفعة دوت فى أرجاء القرية كلها،

وأجبره على تسليم البندقية قائلا: هذا سلاح نارى لا يجوز اللعب به مثل الأطفال!.
لكنه اشتهر أيضا بالكرم، أصر أن يتناول الشرطى طعام الغداء معه حتى يحضر الهاربون. وفى النهاية حضر الهاربون الذين اختبأوا خلف بعض الكثبان الرملية القريبة، بعد أن نادى عليهم وطمأنهم أنه لن يقدم على ضربهم مرة أخرى. جاءوا بحذر ووجدوه فى انتظارهم وقد أعد لهم مائدة غداء، بعد أن تناولوا غداءهم سلمهم رسالة من سطر واحد مكتوبة إلى: السيد الحكومة، رجاء دفع المبلغ المطلوب سداده للبنك من حساب الكوبرى بطرفكم. تسلم أحد موظفى البنك الرسالة باحترام، ثم تابعوا مسيرهم للقبض على مزارعين آخرين أقل شراسة. جهات كثيرة حصلت على نسخة من رسالته إلى الحكومة، كانت الحكومة قد شيدت جسرا فوق أحد الأنهار الموسمية، ولسوء الحظ أو حسنه، عبر الكوبرى فوق أرض زراعية ورثها هو عن والده، لم يعترض على البناء، فالأرض التى عبر فوقها الكوبرى لم تكن فى الأصل ذات قيمة عالية بسبب أن جزءا منها كان معبرا للسيارات فى موسم الجفاف، وكانت تكلفة استصلاح جزء منها عالية، حين ظهرت الحكومة لم يعترض، الحكومة العسكرية مثل الإعصار لا يستطيع أحدهم الوقوف أمامها وإلا كنسته من أمامها.
انحنى للعاصفة، فعبرت فوقه، رفع جسده بعد مرور العاصفة ونفض الغبار عن ثيابه، واستعد للمرحلة الجديدة: يريد مالا من الحكومة، ذكر ممثل الحكومة التعويض عرضا ودون أية إجراء عملى، لكن ذلك كان بالنسة له كافيا، أول زائر حصل على الورقة كان موظفا من مصلحة الضرائب، رفض استلام الورقة وسلمه إنذارا بالدفع وإلا جاءته الشرطة فى المرة القادمة، تعامل مع التهديد بجدية، قام بإغلاق الجسر مستخدما حجارة ضخمة من مخلفات بناء الكوبرى لم تكن قد أزيلت بعد، توقفت الحركة، كان الوقت موسم فيضان نهر النيل ولا طريق آخر قريب للوصول إلى الضفة الأخرى. توقفت قوافل الجباية الحكومية العابرة إلى الضفة الأخرى، فانعزلت تلك الضفة عن رجال الضرائب والزكاة، ومنظمات دعم الشهداء ودعم المجهود الحربى، وعن موظفى البنوك الجادين فى إثر المزارعين الهاربين عن السداد بسبب فشل الموسم الزراعى، ولم يستطع حتى رجال الشرطة الوصول للضفة الأخرى، فهاجم بعض اللصوص المساكين بعض الحوانيت شبه الخالية ليلا، وبعض البيوت، لكنهم لم يجدوا شيئا يستحق الاحتفال بانفراط الأمن فى المنطقة، حتى إن بعض اللصوص اضطروا لينفقوا من القليل الذى وجدوه فى أماكن أخرى على الصغار الذين لم يخلدوا للنوم بعد رغم أن الوقت قارب أذان الفجر، بسبب الجوع.

توسط بعض جيرانه لحل المشكلة لفك عزلة الضفة الأخرى عن رحمة الحكومة. فى النهاية وحتى تتمكن أفواجهم من العبور تقدمت مصلحة الضرائب له باعتذار رسمى وتسلموا منه الرسالة الرسمية الموجهة للحكومة، بعد ذلك قام بفتح الكوبرى فعبرت قوافل الجبايات إلى الضفة الأخرى! قال له صديق بعد أن امتلأ العالم بمذكرة الدفع إلى الحكومة رغم أن الحكومة لم تدفع مليما واحدا، حتى التجار الجوالة فى سوق السبت امتلأت جيوبهم بورقة الدفع الموجهة للحكومة، قال له الصديق يبدو أنك ستستخدم هذه الورقة أيضا فى يوم الحساب حين يطغى وزن سيئاتك على وزن حسناتك القليلة! لقد حافظ على استخدام معقول لمذكرة الدفع، لكنه كان يسىء استخدامها فى أحيان قليلة، لقد اشترى بها مرة واحدة خمرا بلدية رديئة الصنع، إن الحكومة التى تمنع قوانينها المواطن من شرب الخمر ستدفع قيمة الخمر التى شربها، تسلم بائع الخمر الورقة بتردد، لكنه قبلها خوفا من ضخامة وقوة الرجل الواقف أمامه فى حالة تأهب تام، كما استخدم الورقة مرة واحدة فى ممارسة الحب مع بائعة هوى متجولة عثر عليها أثناء تجواله يوم احتفالات الثورة.

قال إن الليلة التى قضاها فى حمايته كانت الليلة التى ينام فيها عميقا للمرة الأولى منذ عدة أشهر، قال لى: لا تقلق، الحكومة مدينة لى بمبلغ ضخم، لا يستطيع أحد إزعاجك، إذا جاءوا هنا سأطلب منهم خصم المبلغ الذى يتوجب عليك دفعه ودفع الباقى لى فورا، سيهربون على الفور، لديهم حجة جاهزة: لا توجد سيولة مالية! كأنهم لا يملكون المطبعة التى تطبع نقودا لا تساوى تكلفة الورق والحبر الذى تطبع به.

حين شربنا الشاى صباحا وتأهبت للمغادرة دفعنى الفضول لأسأله عن مصدر رزقه البديل إذا ما توصل مع الحكومة لاتفاق بخصوص الجسر، قال ببساطة مشيرا إلى معول ملقى فى ركن الفناء قائلا: أستخدم هذا!

اعتقدت أنه سيعود إلى الزراعة التى لم يحقق فيها نجاحا جعله يهجرها مكتفيا بزراعة مساحة صغيرة من أرض ورثها عن والده فقط لتأمين القمح الذى يكفيهم جزءا من العام، ضحك وأشار إلى بيت مجاور لبيته وقال : البيت الكبير، ثم شرح لى: البيت المجاور كان يملكه جده، وحين توفى جده كان عمه يقيم مع جده فآل إليه البيت دون أن يكون هناك تنازل رسمى من قبل بقية ورّاث جده، أبناء عمى تحسنت أحوالهم، يعملون بالتجارة لكنهم لا يزالون يستخدمون البيت الكبير، وبسبب حجمه الضخم يقيمون كلهم فيه بعد أن قاموا بتوزيعه إلى بيوت صغيرة.

حين يصبح الحصول على مال شاقا، أحمل معولا وأبدأ فى فتح باب مع البيت الكبير فى الجدار الفاصل بيننا، حين يسألوننى عن المشكلة أقول لهم

أننى تزوجت وأصبح البيت ضيقا، أريد توسيعه من ورثة جدى، يفهمون عندئذ أننى أعانى شظف العيش، فيدفعون لى مالا أنسى بفضله القضية حتى تنغلق فى وجهى سبل كسب العيش!

قلت له: يقال أنك تهدد بعض الأغنياء وتحصل منهم على بعض المال مقابل معرفتك لبعض أسرارهم! ضحك وقال: لابد أنك تقصد شيخ عبد الرازق،كان زميلنا فى المدرسة وقبل سنوات كان مثلنا رزقه على الله، قبل أن يتحول رزقه فجأة على الحكومة، بدأ بإطلاق لحية، ثم حمل مسبحة وأصبح يقف بعد الصلاة ليعظ الناس. فى البداية ضحكنا وقلنا أنها لوثة أصابته بسبب ضيق الحال، ثم اختفى لفترة من الزمان عاد بعدها إلى القرية ممتطيا ظهر سيارة فاخرة، وعرفنا أنه تلقى تدريبا عسكريا مع الميلشيات الشعبية التابعة للحكومة الانقلابية، وذهب محاربا فى الحرب الدائرة جنوب الوطن، ثم تسلم إدارة شركة تقوم بتوريد الأغذية للجيش. فى خلال شهور قليلة كانت أحواله قد تبدلت، وبنى بيتا جديدا وتزوج امرأة ثانية، ذات مرة وجدته يخطب بحماس فى مظاهرة تم تجميعها لأن مسئولا كبيرا من الحكومة سيحضر لافتتاح الجسر، كان يتحدث بحماس عن الحكومة التى زعم أن الله أرسلها لإنقاذ البلاد والعباد، شققت الناس لأصل إليه، حاول رجال الشرطة منعى لكننى اكتسحت عددا من الأجساد فى طريقى مقدما نفسى باعتبارى صاحب الجسر!، حتى وصلت إليه، قلت له أمام المسئول الكبير: شيخ عبد الرازق أعطنا حقوقنا، كنا يوما زملاء الدراسة والفقر، ما دمت تقول مثل هذا الكلام لابد أنك قبضت مبلغا محترما، قال لى تحدث بأدب فى وجود ضيفنا الكبير، لم أعر الضيف ولا حتى التفاتة فضول، حين لاحظ يدى الممدودة بإصرار أدخل يده فى جيبه وأخرج ورقة مالية دفعها فى يدى، أمسكت بها وقلت له شاكرا وأنا أضعها فى جيبى:

(شعرة من طيظ القرد رحمة!)

وصدف فى تلك اللحظة أن كان مكبر الصوت قريبا من فمى فسمع الناس شكرى له، وبدلا من التهليل والتكبير غرق المكان فى الضحك! ولفترة من الوقت أطلق عليه البعض لقب القرد!

الليلة التالية قضيتها مع صديق آخر، كان يملك أيضا قوة عضلية هائلة، لكنه كان يخاف من الحكومة، مرض يستشرى فى أوساط بعض الفقراء والأغنياء على حد سواء، ينازل كل الناس ويضربهم دون سبب، لكن إن ظهر عسكرى صغير، من النوع الذى لا يصلح للقيام بانقلاب ولا حتى فى بيته، بليت أقدامه من كثرة أداء التحية العسكرية التى يؤديها للجميع، لأن أى عسكرى آخر حتى من أصحاب الرتب الوضيعة يكون أعلى رتبة منه، ما إن يرى ذلك العسكرى الصغير، حتى ينتابه الرعب، ويرتجف جسمه

وكأنه ارتكب جريمة ما، البعض يقولون أن ذلك بسبب أنه ألقى القبض عليه مرة عن طريق الخطأ حين كان يعمل سائقا لحافلة فى المدينة قبل سنوات. ما حدث أنه كان يملك سيارة قديمة كان يقوم بصيانتها بنفسه، وبسبب عدم توفر قطع غيارها لأن موديلها انقرض منذ سنوات، كان يقوم باستخدام قطع غيار سيارات أخرى، حتى أضحت السيارة بعد سنوات من التوليف مسخا معدنيا تكاد كل قطعة حديد فيه تنطق بلغة مختلفة، وجد من هو أكثر فقرا منه فاشتراها منه، ضابطًا صغير بالجيش، من أولئك الذين ترقوا بعد أن كان مجرد جندى، قال أنه يحتاج لهذه السيارة ليذهب أحيانا فى أيام الجمع لقضاء اليوم مع أطفاله الذين يعيشون فى قرية قريبة من مكان عمله. قبل أن يقوم بتحويل ملكية السيارة باسم المالك الجديد وقع شىء عادى يحدث كثيرا خصوصا فى عطلة نهاية الأسبوع: انقلاب عسكرى، يبدو أن الضابط الذى اشترى السيارة كان مشاركا فى الانقلاب، قاد السيارة التى كانت تخص صديقنا حاملا بيان الانقلابيين الأول إلى الإذاعة، لكنه حين وصل إلى مشارف الإذاعة اكتشف أن الانقلاب فشل وأن قوات الحكومة تحاصر المكان، ترك سيارته وهرب. وكأى جهاز أمن مدرب يحمى الأنظمة العسكرية عثر رجاله على السيارة جوار الإذاعة وعرفوا أنها تخص أحد الانقلابيين الهاربين، بحثوا عن صاحب السيارة ووجدوا أنها مسجلة باسم صاحبنا، فقاموا باعتقاله وزجوا به فى السجن مع بقية الزمرة الانقلابية. استغرب الانقلابيون فى البداية وجود سائق حافلة معهم لكنهم تقبلوا الأمر باعتباره مزحة من الحكومة، ليكتشفوا إنه رجل طيب يسعى فى رزقه دون كلل، حتى إن أحدهم اقترح إضافته للتشكيلة الوزارية إن بقوا على قيد الحياة ونجح انقلابهم القادم.

راقت له فكرة أنه أصبح شخصا مهما يهدد وجود النظام، واستطاب الأكل الجيد الذى كان يصل بانتظام لزملائه، وبعد أشهر عانى فيها منغصات قليلة تمثلت فى تعرضه لبعض التعذيب والضرب المبرح، اكتشف رجال الأمن كما ذكروا له أنه شخص تافه وطردوه شر طردة من السجن، خرج من السجن حزينا بخطى متثاقلة، فقد ارتاح فترة من مطاردة الرزق، كما أنه اكتشف هناك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان وأن أشخاصا آخرين يشاركونه نفس اهتماماته الكلاسيكية، لكنهم يحاولون أيضا (كعمل إضافى) تغيير العالم. تنبأ له ضابط الأمن الذى أفرج عنه ورافقه حتى بوابة السجن الرئيسية أنه سيكون الوحيد الذى سيكسر قاعدة أن كل من يدخل إلى هذا السجن ويخرج حيا سيصل إلى السلطة يوما ما!.

كان يعيش فى بيت له فناء ضخم مطل على مزرعة نخيل صغيرة، بعد أن شرب الكأس الأولى أعلن لى: لا تخف، كل من يحاول الاقتراب من هذا

المكان سأحطم رأسه، وأشهر قبضة حديدية فى وجهى فصدقته. وقبل أن يكمل عبارته، انعكس فوقنا ضوء سيارة قادمة من اتجاه المدينة فتراخت القبضة الحديدية فى الهواء بارتباك، لذت أنا بالفرار فى اتجاه أشجار النخيل، وكنت كلما توغلت فى المسير أسمع صوت أقدام تتبعنى، أتوقف لأتتبع مصدرها فيتوقف صوت الأقدام، فى النهاية تراجعت لأحاول اكتشاف من يتبعنى، فوجدت أنه مضيفى نفسه! يبحث عن مكان يختبئ فيه!

قال مبررا هروبه بعد أن اكتشفنا أن السيارة واصلت طريقها دون توقف: تفوح منى رائحة الخمر، خشيت أن يقتحموا علينا البيت من الأسوار كما يفعلون كثيرا، ويجلدوننا أمام العامة يوم السوق، قلت له لكنهم يفعلون ذلك مع أشخاص يمارسون نشاطا سياسيا معاديا لهم، حتى يقوموا بإذلالهم أمام الناس، تخيل أنك تمارس نشاطا سياسيا يعبئ الناس ضد السلطة ويحاول مساعدتهم للانعتاق من نير استبدادها، وفجأة تجد نفسك تجلد أمام الناس نفسهم يوم السوق، لأنك تعاقر الخمور!

يبدو أنه كان لا يزال فخورا بسجنه السابق، فقد قال كتبرير إضافى لهربه: لا تنس أننى شاركت من قبل فى انقلاب عسكري!

لابد أنه اعتقد أننى نسيت قصته الحقيقية، فقد طفق يحكى لى عن دوره المحورى فى الانقلاب، وقال إن صديقا يعمل فى سلاح المظلات بالجيش هو الذى ضمه للخلية السرية التى دبرت الانقلاب، وأفاض فى الحديث عن صديقه المزعوم والأعمال الجليلة التى كان يؤديها لخدمة الوطن. لاحظت: ما تقوله غير صحيح، صديقك ضابط مظلات وما قلته ينطبق على ضابط فى وحدة سلاح الهندسة. قال بعد أن هرش رأسه محتارا: على كل حال لقد قام بأعمال عظيمة لا أذكرها.

فى تلك الأيام التى انعدم فيها صبر أصحاب البنوك،كنت أقضى كل يوم فى مكان مختلف، جازفت بالنوم ليلة واحدة فى بيتى، كنت مشتاقا لرؤية أطفالى وزوجتى، كانت المرة الأولى التى أعرف فيها أن البنك ضد الحب، كان هناك قمر لطيف يضىء العالم لرجال الشرطة، حتى القمر تواطأ ضد الحب، ما إن شرعنا فى الحب، حتى سمعت طرقات على الباب، سألت وأنا مستغرق فى الحب فى الفناء: من هناك؟ جاء الصوت: أنا، بدا لى الصوت يشبه صوت أحد أصدقائى، كان جادا فى محاولة مساعدتى، وكنا زملاء عملنا سويا بالزراعة لفترة طويلة ثم سافر هو لأداء العمرة وبقى هناك لعدة سنوات، يعمل لفترات متقطعة بسبب عدم تمكنه من الحصول على إقامة تعطيه حق العمل هناك، وفى النهاية قبض عليه وتم إعادته إلى الوطن، اعتقدت أنه يحمل لى أخبارا سارة كما أننى كنت أود مقابلته، توقفنا عن الحب على أمل إكماله بعد قليل، ارتديت ثيابى، كانت رائحة

دخان الحب لا تزال تفوح منى حين فتحت الباب، وجدت أشخاصا فى سيمائهم أثر السلطة، طلبوا منى مرافقتهم، لم يكن هناك من مخرج، طلبت أن أرتدى جلبابى وحذائى، تردد كبيرهم الذى علمهم الانضباط، فكر قليلا، ثم قال: سأعطيك دقيقتين، لا تحاول اللعب معنا، البيت كله محاصر، لم أضع وقتا حين عدت إلى البيت، ارتديت ثوب زوجتى، وغادرت البيت من الباب الخلفى الذى تستخدمه النساء، كان هناك شرطى يراقب المدخل وفى يده كشاف صغير، لم يدقق فى وجهى حين رأى الثوب النسائى. انتظر رجال الشرطة فى الخارج طويلا، وفى النهاية طرقوا الباب بعنف، خرجت لهم زوجتى وأوضحت لهم أننى غير موجود، أمر الضابط بتفتيش البيت دون جدوى، ثم تتبعوا أثر المرأة التى غادرت البيت من الباب الخلفى فاكتشفوا إنها ترتدى حذاء رجاليا!

قضيت ليلة أخرى مع صديق آخر، يتزوج كثيرا، كلما سافر إلى مكان ما بغرض التجارة أو مجرد زيارة قريب أو صديق، كان يبدأ قبل أن ينجز شيئا من الغرض الذى أتى من أجله فى البحث عن زوجة. ذات مرة كنت موجودا بالعاصمة لغرض ما، حين عثرت عليه بالصدفة، حمد الله حين وجدنى، قلت له يبدو أنك فى حاجة لشاهد للزواج، ضحك وقال لى ليس بالضبط لكن أهل المرأة التى أريد الزواج منها طلبوا أن يحضر واحد على الأقل من أهلى، وللأسف لا أهل لى فى العاصمة، ثم استدرك قائلا لى: فى الحقيقة خال يعيش هنا لكنه رفض الحضور معى لأنه لا يحب المشاكل كما قال لي!

توكلت على الله وذهبت معه، استقللنا الحافلة إلى بيت العروس، خمنت بسبب معرفتى بظروفه الاقتصادية السيئة تلك الأيام أن المرأة ربما كانت ثرية وربما ورثت مالا عن والدها، يريد أن يشاركها فى ثواب الدعاء للميت كلما حصل على شىء من المال الذى تركه. حين أشرت له على ذلك، ضحك من الفكرة واعترف أن العروس لا تملك شيئا من حطام الدنيا ولا حتى بيتا يأويها وأنها تقيم مع شقيق لها فى منزل مستأجر، وشقيقها نفسه لا يملك شيئا سوى عربة كارو ينقل بها الماء ويبيعه فى الأحياء بسبب انقطاع خدمة توصيل الماء فى المنازل فى أحيان كثيرة.

فكرت لابد إذن أنها بالغة الجمال، لكنه اعترف لى بتقدمها فى السن، وبأنها بقيت دون زواج بسبب أنها دميمة بعض الشىء، وقال ضاحكا: لم يعد الرجال يحبون المرأة البدينة!، ربما بسبب الأزمة الاقتصادية وغلاء أسعار اللحم! لقد تغيرت المقاييس، فى زمن أجدادنا كان يتم تقييم الجمال بالكيلوجرام. وتضطر الفتاة الخفيفة الوزن لشرب عجين القمح لتكتسب وزنا إضافيا وإلا بقيت دون زواج. قلت: إذن لابد أنها متعلمة، ربما درست

فى الجامعة خاصة إنها تقيم فى العاصمة، ربما استفادت من فرصة مجانية التعليم قبل أن تلغيها الحكومة العسكرية.
حين أشرت لذلك اعترف لى أنها لا تفك الخط، وأنها لا تحفظ من القرآن الكريم سوى ما يكفيها بالكاد لأداء صلاة الصبح.
سألته عندها عن سبب الزواج، تحير قليلا، يبدو أنه لا يؤمن بأهمية وجود سبب للزواج، هو شىء طبيعى مثل الأكل أو ارتداء الملابس، لا يمكنك سؤال شخص لماذا تأكل مثلا؟ أو لماذا ترتدى ملابس رغم أن الجو حار؟
قال بعد برهة صمت دون اهتمام: (والله قسمة!)
حين وصلنا إلى بيت العروس وجدنا عددا من رجال أسرتها فى الانتظار أمام البيت، وقد جلس جزء منهم على مقاعد والجزء الباقى على الأرض فوق حصير ملون، وكان هناك رجل ملتح عرفنا أنه المأذون الذى سيعقد القران. كان يبدو متعجلا رغم كبره فى السن، حين بدأ فى كتابة البيانات تساءل عن مبلغ المهر لإثباته فى عقد الزواج، يبدو أن العريس كان يتوقع عرسا دون تكلفة أو أنه سيحصل على مال مقابل عمله الخيرى، أدخل يده فى جيبه فوجد مبلغا صغيرا، فأبقى يده داخل جيبه وتلفت حواليه بحثا عن منقذ، حتى وقع بصره على شقيق العروس فاقترب منه وسأله عن المبلغ المطلوب منه دفعه، أخبره أنهم يتوقعون منه على الأقل دفع نصف مليون جنيه، انتفض العريس وقال متسائلا: فى ماذا أدفع كل هذا المبلغ؟ بدأت مفاوضات صعبة حتى توقف المهر على خمسين ألفا ورفض شقيق العروس مليما أقل، أخرج العريس ما فى جيبه وأشار لى فأخرجت كل ما فى جيبى، نقص المبلغ عشرة آلاف جنيه، حاول البعض التدخل لإكمال العقد لكن شقيق العريس قال إنه لن يتنازل. أدخل بعض الجيران أيديهم فى جيوبهم فخرجت فارغة أو بمبالغ قليلة، اقترحت تأجيل العقد لحين إكمال المبلغ. فوافق العريس على الفور، جمعنا نقودنا وغادرنا المكان.
فى اليوم التالى حين التقيته كان ذاهبا إلى الباص وعائدا إلى القرية ولم يذكر لى شيئا عن موضوع الزواج، حين سألته لم يتذكر فى البداية، ثم عرفت أنه كانت لديه رغبة فى الزواج بالأمس، لكنها تبخرت مجرد أن أخلد للنوم. حكى لى أن علاقته سيئة مع والده الذى يقيم منذ سنوات طويلة فى إحدى الدول المجاورة، قال: كانت والدتى تعيش معه، وبعد وفاتها بقى يعيش وحيدا لعدة سنوات، وجدت من المناسب له الزواج مرة أخرى، لقد اعتاد طوال حياته ومنذ زواجه المبكر وهو لم يبلغ الرشد بعد حسب العادة فى ذلك الزمن، على وجود زوجة بجواره، تهيئ له كل ما يحتاج إليه، يجدها فى انتظاره لدى عودته من عمله الشاق، وفجأة يجد نفسه وحيدا، لقد خفت عليه من الجنون، ليس صحيحا أن المرأة التى اخترتها له كانت

مدينة لى بمبلغ من المال كما زعم بعض الخبثاء. الحقيقة أننى استلفت منها مرة مبلغا من المال، كانت قد استدعتنى لأساعدها فى بعض أعمالها، حيث تمتلك مزرعة صغيرة، قمت بإحضار عدد من العمال معى، وقمنا بالكثير من الأعمال.
نظفنا أشجار النخيل من الجريد الجاف وأحرقنا الحشائش الجافة ونظفنا مراح الأبقار، وأحرقنا الروث كما قمنا بتأهيل أحواض أشجار الموالح ونظفناها من الحشائش، ونقلنا زبل الحمام والبهائم لتسميدها، وحين انتهى العمل قبضنا مبلغا من المال لقاء عملنا. كنت محتاجا لمبلغ آخر إضافى، وحين طلبته منها وافقت بسرعة، والحقيقة أننى لم أحدد موعدا لإعادة المال ولم تسألنى هى إلا بعد مضى حوالى العام، فى ذلك الوقت كنت مهموما بأحوال والدى، وفكرت أن هذه الأرملة ربما تكون خيارا مناسبا.
حين أرسلت لى وطلبت أن أعيد لها المبلغ الذى استدنته منها، وجدت من المناسب أن أفاتحها فى أمر الزواج، لقد وافقت بسرعة، كانت قد سئمت فيما يبدو حياتها الرتيبة، خاصة أن الموت لم يمهلها لترزق من زوجيها الراحلين بطفل، وبسبب وفاة الزوج الثانى بعد أن قضى معها نفس الوقت الذى قضاه الزوج الأول، اعتقد الكثيرون أن الأمر ليس صدفة، حتى إن أغنية سرية راجت آنذاك، تقول كلماتها أن الأرملة سعدية تملك أموالا كثيرة، لكن لسوء الحظ لن يحتاج من يرغب فى الزواج منها إلى مال كثير، فثمن الكفن ليس مكلفا! لم تصدق فى البداية أن أحدهم قرر التضحية بحياته من أجلها، من أجل أن تقضى بضعة أيام سعيدة، تعود بعدها لممارسة حياتها العادية فيما يستغرق زوجها فى راحته الأبدية. بدت لها فكرة السفر فكرة رائعة للغاية، وكان أجمل ما فيها أنها لن تتكلف مليما واحدا. قمت بعمل إجراءات الزواج، وباعتبار الزواج لوالدى لم يسألنى المأذون عن المستند الرسمى الذى يخولنى إجراء العقد نيابة عن والدى، الحياة هنا لا يوجد بها تعقيد الروتين الحكومى، تمضى بسهولة، كأنها أشياء ربانية، لا تحتاج لأوراق أو مستندات يختمها مسئول ما. ولولا الحوجة لعقد الزواج لإرساله للوالد لاستخراج إذن الإقامة للزوجة ما سأل أحد عنه. أرسلت للوالد رسالة طويلة بدأتها بإظهار الاحترام اللازم كما تقضى التقاليد، ثم طلبت منه بكل أدب أن يقوم بعمل إجراءات سفر زوجته (لم أنس أن أكتب له بضعة أسطر فخمة أهنئه فيها بالزواج الميمون) وأن يرسل لها تذكرة السفر لتلحق به، لا أدرى ربما سمع بتلك القصص التى يروجها أصحاب الضمائر الميتة عن تلك المرأة وكيف أنها تستصحب ملك الموت فى رحلات زواجها الترفيهية. حتى إنه فهم فكرة التحاقها به بأنه شروع فى التحاقه بالرفيق الأعلى، لن يموت إنسان قبل أن يحين أجله.

أرسل لى رسالة غاضبة يسأل فيها كيف أقوم بتزويجه دون أن أسأله إن كان يرغب فى ذلك، كأنه طفل صغير، وطلب منى فى ذيل رسالته القصيرة أن أتصرف فى هذه المرأة وأنه ليس مسئولا عنها! هكذا ببساطة، يريد أن يتخلى عن مسئولياته!، تغير العالم وأصبح الناس لا يلتزمون بمسئولية أقرب الناس إليهم، إنها علامات الساعة.

الكارثة أنه أرسل رسالة أخرى لمأذون القرية ذكر له فيها أنه سيشكوه للسلطات لأنه عقد زواجا دون موافقة أطرافه، وأننى لم أبلغه أبدا برغبتى فى تزويجه! كاد الرجل يصاب بالجنون، فى البداية رفضت المرأة فكرة الطلاق، وذكرت أنها ستطالب بتعويض ضخم إن وقع الطلاق باعتبارها الطرف المتضرر، وأنها لم تطلب ذلك، والمصيبة أن المهر كله كان مكتوبا فى العقد كمؤخر، وكانت هى على استعداد لغض الطرف عنه إن تم الزواج.

لم ينقذنى من تلك الكارثة سوى خوف المأذون من المحاسبة، قام باستنفار أهل المرأة واعدا بالبحث لها عن زوج يليق بها، وحتى يقنعها بفكرته تعرض لأبى، قال لها أنه مسن ومزاجه متعكر دائما بسبب عمله لسنوات طويلة فى مزرعة فى الصحراء مشرفا على خيول أحد أثرياء الخليج، كما أنه لا يستطيع الإنجاب بسبب إصابته بمرض السكر لسنوات طويلة. فى النهاية قبلت المرأة التسوية، سنعيد لها جزءا من مالها، يدفع المأذون جزءا، وأدفع أنا الجزء المتبقى، وسيسعى المأذون فى البحث لها عن زوج يقدس الحياة الزوجية.

فى بيت الشراب يكون العوض دائما أول الحضور مساء، يفضل دائما ارتكاب الممنوعات بعد حلول الظلام، كما أنه لا يحب أن يغادر القرية أثناء النهار حيث الفرصة مواتية للقاء عدد من العابرين والتسامر معهم حول أخبار العالم، ويحكى لهم عن خبرته فى سلك التعليم، الذى دمرته الحكومة العسكرية، وأصبح متاحا فقط لمن يملك المال، كما كان يوضح: اطلب من أى خريج جامعى الآن أن يكتب لك رسالة، ستصاب بالصدمة من كمية الأخطاء التى تحتويها الرسالة. حين كنا صغارا كنا نكتب رسائل تصلح خطبا يستخدمها الساسة أو رجال الدين.

قبل أن يدخل إلى صالة البيت يكون قد بدأ فى الكلام، لا يحيى أحدا، يوزع شتائمه على الجميع، لا يسمع أى صوت غيره إلا بعد أن يشرب عدة كؤوس من الشراب، يرتخى مدفع فمه الرشاش ويبدأ فى الخفوت، حتى يتحول إلى صمت مطبق، لا شىء يدل على أنه يجيد النطق، سوى عينين صغيرتين تتجولان فى الفراغ، ينهض فقط حين تتمدد دائرة الصمت من فوقه وتحاصر المغنى، الذى ينخرط فورا فى تفتيش عقله الباطن بحثا عن بقية الصورة التى تظهر أجزاء من تفاصيلها فى أحلامه، يوقفه العوض بعد قليل بإشارة من يده، يسحبه من دروب عقله الباطن، فينفتح وعيه فورا على العالم الغارق فى لا وعيه، فى مساءات صيف لافح، تهدهد قوارب نجومه، نسائم شاردة، تهب من الأودية الغارقة فى شجيرات الحلفاء الكثيفة حيث لا يسمع فيها فى الأيام المقمرة سوى زعيق الجن، وبكاء حوريات النهر الهائمة.

بعد العوض يحضر دائما ميرغنى النجار، كان ميرغنى شابا ذكيا، كان يدرس الهندسة قبل سنوات فى الجامعة، ويقال أنه كان ناشطا مع بعض التنظيمات المعارضة لسلطة الانقلاب العسكرى التى اعتقلته ذات مساء من داخلية الجامعة، واختفى لمدة طويلة قاربت الثلاثة أعوام لم يعرف له أحد فيها أثرا. كان معتقلا فى معتقل سرى تعرض فيه للتعذيب الذى ترك أثرا دائما على مقدراته العقلية، لم يسمع أحد بإطلاق سراحه، ولا حتى والدته التى نزحت من القرية وأقامت فى العاصمة أملا فى أن تعثر على أثر له،

وكانت تشاهد تجوب بعض أحياء العاصمة وتستوقف المارة لتصف لهم ابنها الوحيد، بعد حوالى العامين وجدت ميتة على قارعة الطريق، وقام بعض أهل الخير بنقل جثمانها إلى المستشفى وبحثوا عن أقربائها حتى عثروا على شقيقها الذى كانت تقيم معه فى أحد أطراف العاصمة، ثم ساعدوه فى تجهيز الجثمان ودفنه.

بعد أشهر من وفاة أمه خرج ميرغنى من المعتقل، وجده بعض زملائه فى الجامعة هائما على وجهه فى إحدى الأسواق الشعبية، فأخذوه معهم إلى الداخلية وعرضوه على عدد من الأطباء، وكانوا يتناوبون السهر على رعايته بسبب نوبات الحمى والهذيان التى لازمته فى الأشهر الأولى، التى كان عاجزا فيها عن التحدث عن مكان وجوده طوال السنوات الثلاث المنصرمة، وحين تحسن حاله قليلا طلب أن يعود إلى القرية فرافقه عدد من زملائه إلى هناك.

كان يهوى الرسم، يرسم على الجدران، وعلى الأرض وعلى الأسقف والأشجار، يصنع الألوان بنفسه من مواد طبيعية، من الأحجار ولحاء الأشجار،كانت رسوماته كلها تصور أشخاصا يضربون شخصا ما على رأسه بعصى غليظة، يتغير فقط المكان ووجوه الجلادين، أحيانا تكون الخلفية التى تصور المكان غابة صغيرة من الورود، وأحيانا صحراء قاحلة، وأحيانا تتداخل عناصر المكان والزمان، الضوء والصوت، تتسرب عبر حزم الضوء الملون، ترانيم موسيقية تطغى على أصوات آهات الضحايا، كان الجلادون يستمعون إلى الأغانى القديمة أثناء حفلات التعذيب!

افتتح محلا للنجارة فى القرية لمواجهة أعباء حياته هو وأخته، حاول زملاؤه إقناعه بالعودة إلى الجامعة مرة أخرى، لكنهم لم ينجحوا، ثمة حواجز نشأت بينه وبين المدينة، لم ينجح الرسم من انتزاعها من دواخله تماما، بقيت خيوط أخرى لم تخرج إلى العالم، بقيت مثل جنين يصارع فى الذاكرة حتى لا يخرج إلى العالم، صور كثيرة، أهمها صورة أمه فى مشهد موتها الأخير، على قارعة الطريق، اللوحة التى بقيت متشبثة فى دواخله لا تريد الخروج إلى العالم، كأنه لا يريد أن يخفف من شعور العالم بالذنب حين يسمح لدواخله بولادتها، لا يعترف بموت أمه، يرى حضورها القوى يشع من كل شىء من حوله، تحافظ الأشياء من حوله على نفس مستوى البهجة الذى كانت تنثره فى العالم من حولها: شجرة النيم التى كانت تقضى القيلولة فى ظلالها، دجاجاتها التى تنبش أرض الفناء طوال اليوم، مصباح الزيت الذى تشعله فى الأمسيات فى ركن الفناء البعيد ليجذب الباعوض والحشرات الطائرة. رائحة القهوة التى تعدها لضيوفها فى ساعات الضحى،

حصير السعف الذى كانت تؤدى فيه صلاتها وإبريق البلاستيك الذى كانت تتوضأ منه وتحمله حين تقضى حاجتها، ثوبها الأبيض الذى كانت ترتديه أيام الأعياد، حين تذهب بعد أداء صلاة العيد لزيارة قبر زوجها وتغرس على القبر جريد النخيل، وتقرأ القرآن فوقه. كل شىء باق فى مكانه، الوحيد الذى لا يسمح له بدخول صالة البيت حيث مقتنياتها، هو الموت. يقف فى أمسيات الشتاء عند الباب حزينا، يرقب ضوء المصباح الذى ينقل شتاء من الفناء إلى ركن صالة البيت، كأن ضوء المصباح يعذب وجوده، قبل أن يستدير مغادرا من حيث أتى.

لوحة واحدة ضخمة كان قد شرع فى رسمها فى بيت الشراب، يتوقف أشهرا، ثم يضيف لها خطا صغيرا أو يضيف شمسا أو قمرا باهتا، يشرق على لا وعى السكارى المرحين، فجأة، من خلف تلال رمادية، فتمر ومضة وعى، مثل شريط من النور تعبر فى شاشة لا وعيهم، قبل أن تظهر بقليل من التركيز صور الرجال الذين يضربون شخصا بالهراوات على رأسه.

من رواد المساء أيضا سليمان المحامى، كان يعمل قاضيا قبل سنوات، ثم طردته سلطة الانقلاب العسكرية من وظيفته، ففتح مكتبا للمحاماة لكن السلطة واصلت مضايقته، لأن مكتب المحاماة فى نظرها كان ستارا لنشاط سياسى معارض للسلطة، كان رجال الشرطة يقفزون إلى بيته عن طريق الجدار مساء لضبطه وهو مخمور، وجلد عدة مرات فى سوق المدينة، اضطر إلى تركها والعودة للعيش فى القرية، عاد للعمل فى الزراعة ليعول أسرته، وحين يضطر للشراب كان يقضى الليل فى بيت الشراب حتى لا يتحرش به أحد وهو عائد ليلا إلى بيته. فى إحدى المرات وعقب صدور قرار بالقبض عليه اضطر للاختباء لعدة أشهر فى بيت الشراب، وبعد أشهر طويلة من الاختباء، اضطر للخروج وتسليم نفسه لأن السلطة ألقت القبض على ابنه الأكبر ورهنت إطلاق سراحه بتسليم الأب لنفسه. كان سمل يرخى أذنيه لحكايات سليمان المحامى، تضىء مناطق معتمة فى ذاكرته، كان يتحدث عن الحرب الأهلية التى اندلعت منذ سنوات فى جنوب الوطن، الحرب التى حولتها الحكومة الانقلابية إلى حرب جهادية. العوض حكى أيضا عن مشاهداته فى الفترة القليلة التى أجبر فيها على الذهاب لمناطق العمليات العسكرية، بعد أن أصبح التدرب على استخدام السلاح وقضاء فترة فى مناطق العمليات إجباريا، وإلا طردت من عملك. سمع سمل قصصا عن قرى حرقت بمن فيها، توقف لبرهة حين سمع عبارة أعادته لنفس لحظات تنقيبه فى وعيه الباطن: كانوا يقتلون الأسرى، مجرد أن يحصلوا منهم على ما يعرفون من معلومات! عبرت صورة عمه نور الدين، ما يسمعه من قصص الحرب تساعده على تجميع الصور فى ذاكرته، رأى

عمه نور الدين مربوطا فى شجرة باباى، وقد تجمع جنود من حوله يشهرون أسلحتهم، حين اقتربت صورة الوجه، فوجئ بأن الوجه لم يكن لعمه نور الدين بل وجه عمه مصطفى الذى يعرفه جيدا. هل قتل عمه مصطفى أيضا بعد أسره؟ وما مصير ساتى الذى انقطت أخباره منذ سنوات؟ آخر الأخبار قالت أنه يقود فصيلا متمردا دمّر عددا من عربات الجيش وهاجم معسكرا للجيش قرب مدينة واو.
شعر بحنين لا يقاوم لحياتهم هناك، رغم أنه غادر الجنوب طفلا صغيرا، جرثومة صورة الفتاة الجميلة التى ذابت عند أول لمسة من يد رجل، التى سكنت روح أسلافه، تنتقل إلى روحه عبر الأزمنة، وتستقر فى ذاكرته، بدأت رحلة معاناته فى تجميع أجزاء الصورة فى وعيه الباطن، يزداد قلقه، كلما شعر أنه يقترب من تجميع الصورة، يشعر بها تتباعد، تتناثر فى فضاء سراب النسيان الذى يحاصر وقائع ذاكرته.

ميرغنى النجار لبث طوال أيام منهمكا فى العمل فى لوحته، يعمل فيها أثناء تواجده فى بيت الشراب، يشرب كأسا واحدة ويبدأ فى العمل، ثم يسحب فوقها حين يهم بالمغادرة ستارة طويلة من قماش الدمور، يقول أحيانا حين يسأله أحد زملاء بيت الشراب عن اللوحة: ما أصعب أن ترسم مرآة يرى فيها كل واحد نفسه.

ضحك أحد السكارى وقال: ما حاجتك لرسم مرآة يمكنك شراء واحدة!.

رد ميرغنى وهو منهمك فى مزج ألوانه: يمكنك شراء مرآة لكن كيف سترى نفسك فيها؟ يتذكر السكير شيئا، يوحى له كلام ميرغنى النجار أن هناك شيئًا ما خطأ فى العالم لكنه لا يبذل جهدا لكشفه، خوفا من تبخر أثر الخمر من رأسه. يحتاج ميرغنى النجار لألوان مختلفة لإنجاز عمله.أحضر له الشاويش عبد الجبار ألوانا زيتية. قال أنه تم ضبطها مع أحد اللصوص: اعتقدنا إنها نوع جديد من المخدرات، ثم عرفنا أنها ألوان يستخدمها بعض من ليس لديهم عمل!. بعض اللصوص يحبون الرسم، إنه لص لطيف، يسرق بدافع التسلية، وفى اليوم التالى يعيدالمسروقات كلها، لكنه فى المرة الأخيرة بعد أن سطا على أحد المكاتب الحكومية تأخر قليلا فى إعادة المسروقات. انتظرنا أسبوعا ثم دهمناه فى بيته. لا يعتبر أن سرقة مكتب حكومى هى سرقة. قال إنهم يسرقون الناس فى وضح النهار وبحماية الشرطة! كان كلامه مقنعا حتى إن بعضنا شعر بالخجل. تمضى عدة أيام قبل أن يضيف ميرغنى شيئا إلى لوحته، أو يحذف شيئا. ينشئ جسرا فوق النهر، ثم يهدمه فجأة ويسحب النهر نفسه ويلقيه خارج مملكته فتغرق صالة الشراب فى فوضى الأمواج الصاخبة. تغيب الشمس فجأة ثم تشرق من نفس مكان غروبها، يعلّق أحد السكارى فى ومضة وعى حين يرى الشمس القادمة من مغربها تؤرق سكينة ساعته البيولوجية:

- هذه إحدى علامات القيامة!

ونسبة لأن سطح الجدار المشيد من الطين لم يكن مستويا، كان يحتاج مجهودا أكبر حتى لا تضيع أجزاء من المرآة فى تعرجات الجدار، يستخدم الجبص لمعالجة تعرجات الجدار.

يلاحظ أن ألحان سمل الساحرة كانت تقود فرشاته، تخبئ تحت سطح الألوان براكين خامدة من صور يسحبها من ذاكرة الموتى، تتحول إلى رماد مجرد أن يحاول إخراجها لضوء الشمس.

يلاحظ بسرعة أن الفتى كان يحاول استغلال لوحته لتحرير صور مدفونة فى ذاكرته، تقبع تحت مستوى إدراكه. تتفكك الألحان فى اللوحة دون أن تجعله يغير خط رسمه الارتجالى، أو يعيد تشكيل العالم الذى كان يولد بضربة فرشاة.

يبدأ فى رؤية العالم عاريا فى مرآة لوحته، يعرف أنه يرى العالم كما يود هو رؤيته.
لا تستره ولا حتى ومضة سراب. يتأمله رواد بيت الشراب وقد بدا أكثر التصاقا بلوحته، يبدو بملابسه الملطخة بالألوان وكأنه قد خرج منها. يصعب أحيانا الجزم بمكان وجوده داخل اللوحة أو خارجها، كأنه يلغى المسافات بفرشاته.
سمل أصبح يقضى معظم أيامه فى بيت الشراب، يشعر أن ميرغنى النجار ينتزع أحشاء ذاكرته ويحولها إلى خيوط ضوئية تتشكل جنينا فى ذاكرة مرآة لوحته. يشعر أن رحلته الحتمية التى بدأت عبر الذاكرة بدأ أوانها يتشكل من خلال المرآة. ترك سميرة وسعيدة وزوجته وأمها يحصدون محصول الكركدى. بدر الدين كان قد سافر شمالا بعد سفر الشيخ السائح الذى بقى عدة أيام فى حالة ذهول وحزن شديد بعد أن تلقى خبر وفاة ابنته فى هجوم للجيش الحكومى على القرية التى كانت تقيم فيها ابنته وزوجته الثانية. كان قد قرر فى البداية أن يمتثل ويبقى فى القرية. لكنه قرر فى النهاية أن يسافر أملا فى أن يزور قبر ابنته ويعثر على زوجتيه وابنه المفقود.
الليلة الأخيرة لسمل فى بيت الشراب وفى القرية كانت ليلة غريبة، فى الخارج أصوات دق الطبول بسبب خسوف القمر تصل إلى أسماع السكارى مكتومة وغريبة، كأن من يقوم بدق الطبول هى كائنات من عوالم أخرى. تفوح فى الجو روائح نوار الليمون. لم ينتبه أحد لميرغنى النجار وهو ينهى عمله، يضع فرشاته جانبا ويخلع للمرة الأولى منذ أشهر الملابس الملطخة بالألوان. سمل كان هو الوحيد الذى سمعه يقول وهو يتهالك على الأرض: غدا سيرى كل من ينظر فى هذه المرآة نفسه عاريا.
سمل لم يكن يميز بين الناس فى تلك الليلة. الجميع يحلمون بصوت عال. يتعالى أحيانا صوت نواح خفيف من أحد السكارى النائمين. يتداخل صوت الريح ودقات الطبول أحيانا مع ألحانه فيصبح لها تأثير إعصارى يستيقظ على أثره السكارى، ثم يعودون لنومهم حين يتلاشى صوت الريح. وتبتعد دقات الطبول حين يبرز وجه القمر.
استسلم سمل للنوم وهو يغنى، أيقظه ضوء الشمس، رأى العالم من حوله غارقا فى النواح. لم ينظر باتجاه لوحة ميرغنى النجار، رأى ميرغنى يجلس بجانبه وهو يبكى، فى عيونه رأى صورة أمه الميتة على قارعة الطريق، تشهد على قسوة العالم. لاحظ أن بكاء كل واحد من الحضور كان يخصه وحده. نظر باتجاه اللوحة، فشاهد المناظر المتغيرة فى صفحة المرآة، فعرف أنه ينظر إلى شاشة دواخله، إلى الصور التى تحررت كلها.

رأى البيت الذى حلم ساتى وشمس أن يسكنا فيه فى جوبا. ثم رأى شمس النائمة فى قبرها مع الطفل الصغير الذى لم يقدّر له أن يولد، صورة مصغرة من أبيه، من ساتى الذى رآه وفك كماشة قوات حكومية تطبق على قواته المنهكة بعد معركة خاسرة حول مدينة توريت، رأى نفسه يقطع أولى خطوات الرحلة التى حان أوانها.
ثم تناثر بساط من الضوء قبل أن يرى صبيين تعرف فيهما على والده وعمه، يقفان بانبهار أمام نهر صغير، تتماوج على صفحة مغيبه الساحر صورة شبح أليك الجميلة التى تحولت إلى ماء عند أول لمسة من يد رجل.

ملاحظة:

أشعار الدينكا منقولة مترجمة من مجلة الخرطوم التى كانت تصدر فى ثمانينيات القرن الماضى.